أيها الشعراء ..

صباحكم مازال مشرقا

جابر بسيوني

الكتاب: أيها الشعراء .. صباحكم مازال مشرقا

الكاتب: جابر بسيوني

الطبعة: ٢٠١٧



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

بسيوني، جابر

أيها الشعراء .. صباحكم مازال مشرقا

جابر بسيوني – الجيزة: وكالة الصحافة العربية.

تدمك: ٤- ٥٢٤- ٤٤٦- ٩٧٧-٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع / ٢٠١٧/١٥٩٧٩

أيها الشعراء ..

صباحكم مازال مشرقا





تصدير

" أيها الشعراء .. صباحكم مازال مشرقا " كتابٌ يضم اثنى عشر من الشعراء الراحلين الذين أحببتهم ورأيت في رؤاهم الشعرية المتفاوتة وإسهاماتهم المتباينة وتجاربهم الإبداعية، ما أضاف إليَّ من متعة وجدانية وأفاق فكرية جعلتني أعتز بكل منهم، وأعترف بفضله عليّ، لذا أشعر بأن لكل منهم دينًا في عنقي أعجز أن أرده، منهم من رأيته وحدَّثته وتعاملت معه، ومنهم من أعجبت به وتأثرت بإبداعه وفكره دون أن ألقاه، ولعلني في هذا الكتاب أعترف بفضل يتجدد أسره لذاكرتي ونفسي، ويمتد عطاؤه في قلمي وحسي. وهؤلاء من الشعراء، بعضٌ من كثير ممن أحببتهم أو تأثرت بهم أو تعلمت منهم، ولكني رأيت أن أستهل بهم قطر الوفاء، وورد التقدير، وسُبُل من يذكِّر بما ينفع، ووراء هذا أسباب يسعدني أن أعرضها فيما يلي..

فأول ما يتضمن الكتاب، الشاعرة "سلوى حجازي" أول من فتَّحت عيني على حكيها وسردها المشوق "حواديت ماما سلوى" الصادر بعد رحيلها، والذي قدمه لي معلمي في المدرسة الابتدائية "التربية الاستقلالية" بالإسكندرية في ديسمبر عام ١٩٧٢، وكنت تلميذًا بالصف السادس الابتدائي، وكان هذا الكتاب هدية لتفوقي العلمي، وقرأته وعمري لم يتجاوز الثانية عشرة، ووجدت في نفسي الرغبة في محاكاته وتقليد ما به من حواديت كانت "ماما سلوى" تقدمها – قبل استشهادها – للأطفال،

ببرنامجها التليفزيوني "عصافير الجنة"، ثم مرت السنون ونما بداخلي حب "ماما سلوى"، وبحثت عن أعمالها ووجدت شعرها بالفرنسية والمترجم إلى العربية، وأعجبت به إعجابًا أضاف إلى ما بنفسي لها من إعجاب وتمنيت لو أن أعبر عن مدى تقديري لها، والآن يتحقق ما تمنيت.

وأما ثاني الشعراء في هذا الكتاب، فهو شاعر تعلَّمت من قراءة سيرته العزم والإرادة وتحدي المصائب والأرزاء ومواجهة النوائب والصعاب، هو الشاعر التونسي "أبو القاسم الشابي" فبرغم رحيله بعد مرض ألمّه في ريعان الشباب، إلا أنه ضرب المثل لرمز علَّم الشعوب الثبات على المبدأ وإرادة الحياة وحسبه قوله:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي ولابد للقيد أن ينكسر

وكم استلهمت هذه الإرادة الحديدية في كثير من مواضع حياتي، فصار أبو القاسم معادلًا إنسانيًا، ووددت أن أعترف بفضله وأخط بقلمي حبي له إنسانًا وشاعرًا.

وثالث شعراء الكتاب، هو الشاعر "طاهر أبو فاشا".. الذي شرفت بمقابلته عام ١٩٨٧ في مؤتمر "أعلام دمياط"، الذي عقد في كلية التربية بدمياط لتكريم د. محمد حسن الزيَّات، وحضره عدد كبير من كبار شعراء مصر – آنذاك – يتقدمهم الشاعر الأشهر "طاهر أبو فاشا"، وأثناء إلقائي لقصيدتي "س، ج" أمام السادة الحضور الذين ملأوا المدرج الكبير

بالكلية، صاح الأستاذ طاهر... "الولد ده شاعر"؛ فانتبه جميع الحضور، وعلت همهمات وتشابكت التعليقات، وإذ به يقول لي وأنا أقف على المسرح من مقعده بالصف الأول: أكمل... ثم يقابلني بعد انتهاء الأمسية ويؤكد لي بأنني سأصبح شاعرًا كبيرًا ذات يوم، ونصحني بعدم الغرور ومواصلة الاطلاع والمثابرة على القراءة.

ولم أزل رغم رحيله في عام ١٩٨٩، أشعر بأنه يكرر نصحها لي وأسمع وصيته في داخلي كلما تقدمت في درب الأدب وتحقق لي بعض الأرب.

ورابع الشعراء في هذا الكتاب هو شاعر المقاومة الفلسطينية "سميح القاسم"، الذي كنا نردد شعره لكي ننفس عما بداخلنا من غيظ تجاه العدو الصهيوني المحتل الغاشم لأرضنا "فلسطين"، وتحقق حلمي بأن رأيته بل حاورته وتوطدت العلاقة حتى أصبحت صداقة بين أستاذ وتلميذ من محبيه، أو بين صاحب تجربة شعرية يحتذى بها، وشاعر واعد يرى فيه القدوة. ووقفت على جميع قصائده في فلسطين، وكتبت لها دراسة أدبية، وصدر هذا العمل في سلسلة "آفاق عربية" عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بعنوان "مختارات من شعر سميح القاسم" في عام ٢٠٠٨، ولم أكتف بذلك بل أجد في نفسي الرغبة في تعزيز ما بدأت فهو يستحق مني الكثير وحسبه أنه علمني كيف تتواصل الأجيال.

وأما خامس هؤلاء الشعراء في الكتاب، فهو أبي الروحي ومعلمي الأول لفن الشعر ونبراس حياتي الأدبية الشاعر السكندري "أحمد علي

السمرة" أول من علمني علمي العروض والقوافي، والذي تعهدني بالتوجيه والإرشاد في كل مناحي الأدب بل الحياة، وهو نموذج للشاعر عزيز النفس، شامخ الذات الذي يرى في قناعته بالقليل امتلاك الكثير، وفي استغنائه امتلاكه للكون كله، وحسبه قوله الشعري:

"خذني فلا يقوى على مهر النفيس سوى النفيس"

وبعد هؤلاء الشعراء الخمسة، يأتي شعراء آخرون يكتبون شعرهم وأزجالهم وأغانيهم باللهجة العامية وأولهم: "عبد الله النديم" خطيب الثورة العرابية.. الشاعر والزجَّال والصحافي والمسرحي والمصلح الاجتماعي والرجل السياسي، فهو رجل مبدأ، ما تقدم إلى شيء إلا أضاف إليه وأضاءه؛ لذا وجدتني أعجب بأزجاله وقدرته على توظيفها لأغراضه ومهامه الأخرى، وقد تألمت لوفاته في منفاه برغم ما قدم لمصر، وطنه، وأرى أني كمواطن مصري مدين له بالوفاء.

وثانيهم: زجَّال الشعب "محمود بيرم التونسي"، والذي أعطى لفن الزجل المرتبة العالية والتقدير الأدبي فضلا عن كون أزجاله قد وثّقت وأرّخت لشتى صور الحياة المصرية وأحداثها بما يتفق وفترة حياته المعيشة، وقد ينقص أي وفاء إذا لم يذكر بيرم، لذا تضمنه كتابي لما له من أيادٍ بيضاء على الزجل خاصة والشعر عامة

وثالثهم: "صلاح جاهين" شاعر قصيدة العامية المفكر، المتأمل، متعدد المواهب، وقد تأثرت بكلماته البسيطة العميقة المعنى المؤثرة، ومنها أول ما استمعت إليه:

"القمــح مــش زي الــدهب القمـــح زي الفلاحـــين
عيـــدانه نحيـــله جـــدرها بياكـــل ف طـــين"

وأرى أنه صاحب الأسلوب الشعري الفريد على مستوى القصيدة أو الأغنية، هو شاعر مُلهم لابد لقارئه أن يعود إليه، وها أنا أعود إليه.

ورابعهم: "مأمون الشناوي" شاعر أحلى أغنيات الموسيقار "فريد الأطرش": الربيع، أول همسة، نجوم الليل، سألني الليل، وكلها أغنيات أحببتها في سن مبكرة، لحبي لمطربها حبا شديدًا، وامتد هذا الحب إلى البحث عن صاحب هذه الكلمات فكان "مأمون الشناوي" الذي أسرني بأغنيته الشهيرة "بعيد عنك حياتي عذاب"، والتي تتردد في نفسي وقلبي كلما تذكرت أحبائي الذين رحلوا عن دنيانا..

وخامسهم: "محمد حمزة" الذي التقيت به قبل رحيله بشهور قليلة تمهيدًا للاشتراك معه في شريط غنائي لمطرب فلسطيني، فوجدت في مقابلته وداعةً وترحيبًا ووفاءً نادرًا لأساتذته ومن قدم له يد العون في بداياته، وأيضًا لزوجه صاحبة حبه الكبير المفجر لأحلى كلماته والتي تمنى أمامنا أن يلحق بها قريبًا لأنه لا يطيق الحياة بدونها، وبرغم أن العمل بيننا لم يتم إلا أن لقائي به لم يزل يتجدد، لما تضمنه من سمات إنسانية، ووقفات فنية أثرت في خطاي وأثمرت في تجربتي الإبداعية..

وأضفت إلى ما سبق من شعراء شاعرين ربطت بيني وبينهما صداقة عميقة وأواصر أدبية لسنوات طوال – أولهما: الشاعر الدكتور حسن فتح

الباب – طائر الصباح الجميل – الذي رأيت فيه قدوتي المنشودة فيما قدم من عطاء جليل في التأليف القانوني والإبداع الإنساني الفكري – فضلًا عن تجربة الشعرية التي رأيت في سماتها ما راق لي وجعلني أرجع إليها لكي أحلق في سماء الشعر الذي يعلي من قدر الإنسان – أما ثاني هذين الشاعرين، هو الشاعر المقاتل صاحب الذات الشامخة والمبادئ الراسخة صبري أبو علم – أمين عام هيئة الفنون والأداب – سابقًا – وأحد محركي الثقافة في الإسكندرية – والذي جمعتني به روابط أدبية وفنية عبر مشوار طويل.

وقد انتهجت في الكتابة عن هؤلاء الشعراء منهجين: النفسي والفني، بما أتاح لي الحديث عن لمحات ذاتية في حياة كل منهم بجانب إضاءة مواضع متفرقة في إبداعاتهم الشعرية.

وأراني مهما بلغت، مقصرًا عن رد فضل كل منهم عليّ، بيد أني حاولت، والكمال لله تعالى وحده..

والله ولي التوفيق...

جابر بسيوني

الإسكندرية

٢١ يونيه ٢٠١٧

سلوى حجازي.. وردة الحب والشعر

(٢ مايو ١٩٣٤م– ٢١ فبراير ١٩٧٣ م)

في الأربعاء الموافق ٢١ فبراير ١٩٧٣م، سقطت على أرض سيناء الحبيبة، الطائرة المدنية العزلاء العائدة من ليبيا الشقيقة حاملة أكثر من مائة راكب من بينهم "سلوى حجازي" مذيعة التليفزيون المصري، وشاعرة الكلمة النبيلة.

سقطت الطائرة بعد أن تعطل أحد أجهزتها، فضلَّت الطريق ودخلت المجال الجوي لسيناء المحتلة فما كان من العدوِّ الإسرائيلي الغادر إلا أن سلَّط نيران طائراته الفانتوم تجاهها ولم يتركها إلا حطامًا ورمادًا يضم بن سواده جسد "سلوى" شهيدة الحب والبراءة وشاهدة على غدر العدو الصهيوني الجبان الذي يتصدى بالسلاح للأبرياء العُزَّل، وتلك صورته في كل مكان وفي أي زمان.

ذهبت سلوى حجازي إلى ليبيا الشقيقة لتشارك في البناء الوحدوي الشامخ من خلال برامج التليفزيون الليبي، وهي التي نشأت على ضفاف البحر في "بورسعيد"، لوالد يعمل قاضيًا، وأم من أصل تركي "عفت هانم"، وقضت شبابها في التليفزيون المصري منذ أوائل الستينات كمقدمة ومعدة البرامج العديدة للكبار والصغار، ومنها برنامجها الشهير "عصافير الجنة"،

الـذي أثـرت بـه وجـدان كـل طفـل مصـري، بـل وعربـي، كمـا كانـت تقـدم التحقيق المصور عن كل أقطار العالم لمصر.

وهـي أم لبنـت "رضـوى" فـي السـابعة عشـرة، وثلاثـة أطفـال هـم: محمد، وآسر، وهاني.. وهي مع كل ذلك شاعرة اتخذت من الشعر وسيلةً للتعبير عن كل ما تحسه ويجول في خاطرها ويختمر في وجدانها، ولقد خلَّفت لمكتبة الشعر ديوانين: "ظلال وضوء"، و"أيام بلا نهاية"، والديوانان باللغة الفرنسية التي تتقنها بعد أن تخرجت في مدرسة "الليسيه"..

ويقـول شـاعر الشـباب "أحمـد رامـي" فـي مقدمتـه باللغـة الفرنسـية لديوانها الأول "ظلال وضوء":

"لو أن الشاعرة سلوى حجازي، صاحبة هذا الديوان، صوِّرت على هيئة الطير، لكانت بلبلًا يرفرف على غصن ندي، مرسلًا أغنية يطرب لها الظل والماء.. ولو أن لهذه الطائفة من الشعر نسخة مسموعة، لطرب من يصغي إلى هذا البلبل، لبديع توقيعه وحسن ترجيعه. فما بالك إذا كان لهذا الـديوان نسـخة مرئيـة، إذن لأبصـرت العين صـورة ذلـك البلبـل وهـو يتلـع جيده، ويرسل تغريده، ويحرك رأسه الصغير على رجع لحنه الشجي"

وتنم قصائد "سلوى حجازي" على روح شفاف وقلب ملائكي ملهم بحب الحياة والإنسان ويسعى للأمن والسلام، وتقول في قصيدتها:

"كيف يا ربي أكون كالأحجار

وأنا بداخلي واحة من عشب أخضر الثمار

تتألق كملايين الأنوار

لتضيء العالم.. بينما هو يرفضه!"

وتعتز بأنها أفريقية في قصيدتها "أنا أفريقية" التي ألقيت في مؤتمر إفريقي بالجزائر سنة ١٩٦٩:

"أنا أفريقية محاطة بعمالقةٍ ووجوه سمر

كبرياؤها يرفعها حتى القمر

وأقنعةٍ عجيبةٍ تحمل أسرارَ أجدادٍ فوق البشر

وطبولٍ بدائية

تهز أعماقنا وتتحدى بثورتها القدر

وملابسَ تقليدية

ألوانها ذات بريق يسلب منا البصر

وقلوب مفتوحة"

ورغم أن شعر "سلوى حجازي" يتسم بالرقة والعذوبة والبعد عن الافتعال والتصنع إلا أن نزعة التشاؤم واليأس كانت نابضة فيه ومتسربة في طياته، وتأمل ذلك في قصيدتها "بداية الضعف"، التي ترجمها الشاعر "صالح جودت":

"أيها القلبُ الذي ضِقْتَ بكبتي واصطباركْ

إنني أسمع آهاتِكَ حَرَّى من قرارِكْ

لا تُهدِّدْني على صبري وصمتي بانتحارِكْ

لا تُهدِّدني.. ولا تُنقذْ لضعفي باقتدارِكْ

أنا لا أدري إلى أين أسير؟

ولماذا أرتضي عيشَ الأسير؟

وإذا عشتُ حياتي.. مثلما

عشتُ ماضيَّ.. فما أشقى المصيرْ!

قدرٌ يا قلبُ.. ما في طوْقِنا

غير أن نحياه لليومِ الأخيرْ

وقضاءٌ في ضميرِ الغيبِ... إنْ

صحَّ يوماأنَّ للغيبِ ضميرْ.. "

وتأمل قصيدتها "أول أمل"، ترجمة المرحوم إبراهيم نجا:

"أحس بها بهجة طاغيةْ

تهز كياني وأعماقيه

وتملأ قلبي بآماله

وبالنور تملأ أياميه

وتجعلني زورقًا سابحًا

على لجةٍ برَّةٍ حانيهْ

ولكنه ليس يقوى على

تحمل موجاتها العاتيهْ

فيا رب.. يا نور هذا الوجود وأسراره الباقيهْ

أيبقى مدى الدهر هذا الشعور؟

أيمضي مع الليلة الماضيهْ؟"

ويتأكد شعورها بالخوف في قصيدة "الأضواء" التي ترجمها الشاعر "كامل الشناوي"، ومنها:

"هذه الأضواءُ، كم أكرهها

قيَّدت حريتي قيداعنيفاً

أبعدوها.. أبعدوها.. إنها

شبحٌ يبدو لعينيَّ مخيفا

قبضةٌ تمسك ساقي ويدي

قفصٌ حبس عصفوراضعيفاً.."

ويعد أجمل ما في شعر "سلوى حجازي" من سمةٍ هو التوحد مع الواقع والنبض فيه والاستلهام منه، وقصيدة "البائع العجوز". ترجمة الشاعر صالح جودت – تعكس لنا صورة حية لبائع "بسكويت الفانيليا" على شاطيء بحر بورسعيد، تلتقطها الشاعرة مفجرةإياها لتصور لنا ملامح هذا البائع عبر سنوات العمر التي تمرُّ عليه فتغير فيه وفي ملامحه وفيما حوله من وجود وتقول فيها:

"أهكذا الدهْرُ بنا يجري

ويأكل العمرَ، ولا ندري

ذكّرني مرآكِ كيف انقضت

عشرةُ أعوامٍ من العُمْرِ

وأنتَ في مغربها، لم تزل

كما وعتك العينُ في الفجْرِ

تدق صنجاتِكَ، تلك التي

كانت تهز النفْسَ بالبِشْرِ

ونفس جلبابك، لولا البلى

محا ظَلالَ اللونِ والسطرِ

عشرةُ أعوامٍ ، توالى على

حالِكَ فيها حادثُ الدهرِ

عدا على وجهك عاد الضَّنى

فاغتال منه بسمةَ الثغرِ

وذاك صندوقك.. ما خطبُه

بعد السنين المُرَّةِ العشْرِ

تدفعه الآن على مرْكبٍ

وكنتَ تُدليه على الظهْرِ .. "

ولقد ترك رحيل "سلوى" ألمًا لا يهدأ وجرحًا لا يندمل في نفس كل عربي حمله قلم الشعراء وسجله وجدانهم شعرًا، وفي رثائها تقول الشاعرة "روحية القليني":

"سلوى الحبيبة قد مضت في لحظةٍ

وقضوا على زهر الربي الفنيانِ

لم يرحموا أطفالها من بعدها

قتلوا الأمومةَ نبْعَ كلِ حنانِ "

ويقول في رثائها – أيضًا – الشاعر فتحي سعيد

"افتحْ هذا الصندوق

أغلقْ هذا الصندوق

ليست سلوى..

ليست بسمتها.. رقتها

كانت حلْوى.. "

وأيضا للشاعر فرج مكسيم في رثائها:

"آه.. يا سلوى حجازي

قلبكِ الحي أبى ألا يموت

دون أن يلقي على سيناء نظرةْ

أرضه فرَّت.. فماذا يتبقَّى

من أمانيه، سوى حُلم لقاء"

رحلت "سلوى حجازي" جسدًا جميلًا مستشهدًا على رمال سيناء، مقتنعة بأن الشهادة حياةٌ، وأن الرحيل الكريم بقاء..

رحلت "سلوى" بعد أن تنبأت في شعرها بأنها ستموت في زهرة العمر، وأنها ستموت في كارثةٍ ، وهذا قولها خير شاهد:

"عندما أتخيَّل مستقبلي

أراه حافلًا بسوء الطالع

فأبكي عليه مقدمًا

إني أرى الموتَ قريبًا جدًا

ومن ورائه كارثة كبيرة

فأحبابي لا يزالون صغارًا

أصغر من أن يستطيعوا العيْشَ وحيدين.. "

رحلت "سلوى حجازي" هذا القلب الملائكي والشعر الغني المليء بالحب والخير والجمال.. رحلت لتبقى في قلوبنا وردة الشعر والحُبِّ..

الحُلْم في أشعار أبي القاسم الشابي

وُلد "أبو القاسم الشابي" في عام ١٩٠٩، بالشابية إحدى ضواحي توزر بتونس، التي كانت تئن تحت الاحتلال الغربي الفرنسي منذ عام ١٨٨١م. وكان لتعاون الباي . لقب حاكم تونس . مع الاحتلال ضد الشعب، ومطالبة اليهود الذين سيطروا على الموارد المالية بتطبيق القانون الفرنسي عليهم، أثره البالغ في ضرورة ميلاد روح الثورة وظهور الصوت القائد..

ولقد كان لنشأة أبي القاسم في بيتٍ عامرٍ باللقاءات الدينية والفكرية . إذ كان أبوه "محمد أبو القاسم" قاضيًا شرعيًا – الأثر في تكوين رؤيته الخاصة للإنسان في تونس وميلاد الحلم في أشعاره، وساهم في ذلك فهمه السديد للدعوة التي بدأها الإمام محمد عبده في مصر ثم الشام ثم تونس منذ أواخر القرن التاسع عشر، والتي تتلخص في فهم روح الشريعة الإسلامية باتباع شيئين أولهما: البعد عن الخرافات التي تُرتكب باسم الدين، وثانيهما: أن الدين الإسلامي دينٌ معاصرٌ ويجب فهمه واعتناقه على هذا الأساس.

كلُ هذا أشعل في نفس أبي القاسم العزم على التعبير عن آلام هذا الوطن، وتحقيق الحلم عن طريق تغيير الإنسان الذي هو لبنة هذا الشعب؛ فراح يُناصر ويُنادي بتحرير المرأة وفهم مكانتها الاجتماعية والنظر لها

كإنسان لا كجسد، مؤيدا في ذلك "الطاهر حداد" صاحب هذه الدعوة في تونس على غرار "قاسم أمين" في مصر، وتجلى ذلك في تعبيره ونظرته إلى المرأة في أشعاره؛ فلقد وضعها موضعًا راقيًا، ونظر لها نظرة سامية.. تأكد ذلك بنظرته المثالية للحب تجلَّت في قصيدته المشهورة: "صلوات في هيكل الحب".

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحلام ... كاللحنِ، كالصباحِ الجديد

كالسماء الضحوك، كالليلة القمراء ... كالورد، كابتسام الوليد

أنْتِ ما أنتِ؟ أنتِ رسمٌ جميلٌ ... عبقريٌ من فنِّ هذا الوجود

وأكد أبو القاسم الشابي ذلك عندما أبرز الأمومة في قصيدته "قلب الأم"، ووضَّح ما لها من جلال ومكانة:

كلٌ نسوْك ولم يعودوا يذكرونك في الحياةِ

والدهرُ يُدفنُ في ظلامِ الموتِ حتى الذكرياتِ

إلا فؤادًا ظلَّ يخفق في الوجود إلى لقاكِ

ويودُّ لو بذل الحياةَ إلى المنية وافتداكِ

وأيضا اتجه إلى الشعب مخاطبًا إياه بأمنيات على لسانه تقول ما تتمناه لنفسه وله، كما في قصيدة "النبيُّ المجهول".

أيها الشعب ليتني كنت حطَّابا ... فأهوي على الجذوع بفأسي!

ليتني كنت كالسيول إذا سالت ... تهدُّ القبورَ رمسا برمس!

ثم استطاع أن يخاطب الشعب مباشرة مُظهرًا ما يمكن له تحقيقه إذا أراد:

إذا الشـعْبُ يومـا أراد الحيـاة فلابـدَّ أن يسـتجيب القـدر
ولابـد لليـل أن ينجـلي ولابـدَّ للقـيدِ أن ينكسـر

وكان لقوله "فلابد أن يستجيب القدر" ثورة في جامع الزيتونة، وهو بؤرة الحركة الدينية في تونس، ويقابله في مصر الجامع الأزهر، وتتلخص الثورة في أنه كيف يستجيب القدر – الذي هو من صُنع الله وحده – إلى مشيئة الشعب وإرادته..

وكان الرد الواعي لأبي القاسم؛ إذ أن ظاهر القول يوحي بذلك؛ فباطنه المقصود هو أن في وقفة الشعب وقفة قوية واحدة، القدرة على التغيير إلى الأفضل والخروج من هذا الاحتلال الغربي لتونس..

ووسط كلِّ هذا لم ينس أبو القاسم الشابي أن يبدأ بنفسه في فهم ما له وما عليه؛ فقال مناديًا بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقَّة، كما في قصيدة "بقايا الخريف"

كرهـتُ القصـورَ وقطَّانَهـا وما حولها من صـراعٍ عنيف
وكيـدَ الضـعيفِ لسـعي القـوي وعصف القويِّ بجهْد الضعيف

ولقد كان لعذوبة الصور وسلاسة المعاني وسهولة الألفاظ في أشعاره التي استلهمها من بيئته وآلامه أثره في ذيوع اسمه كشاعر مجدد وصاحب

رؤية إبداعية متفردة، وأكد ذلك ارتباطه بجماعة أبوللو في مصر كأحد مؤسسيها.

من كل هذا يتضح لنا أن أبا القاسم كان شاعرًا إنسانًا اختار لنفسه طريق الفن والإبداع لكي يهرب من ألمه المتجدد . دومًا . فبرغم ميلاده في ظل الاحتلال لبلاده، ورغم موت والده وهو في العشرين من عمره تاركًا له أسرة هو العائل الوحيد لها، أصيب في صغره بمرض تضخم القلب الذي كان يزيد ألمه يومًا بعد يوم، لكن كل هذه الآلام لم تنسه وطنه وبلاده، والذي تجلى في تغيير الإنسان ليكون قوة على طريق حياة هادئة سالمة، والتي هي حُلم أبي القاسم الشابي الذي رحل في ١٩٣٤ م، مُورِّثًا لنا شعرًا عربيًا متجددًا متميزًا، نعود إليه كلما ظمأنا إلى كلمة حالمة تجسد الحياة..

طاهر أبو فاشا.. الغائب الحاضر

كـان "طـاهر محمـد أبـو فاشـا" شـاعرًا متمكنًـا مـن اللغـة العربيـة وأسرارها، ذا قدرةٍ على سبر غور مفرداتها والغوص في ألفاظها، وقد أهَّله ذلك لأن يكون المرجع لمن أراد الفائدة، وأن يصبح المحجة لمن احتج إليه، فضلًا عن موهبته الخالصة الصادقة الخلاقة لا في الشعر فحسب، ولكن الممتدة إلى ريادته في مجال التأليف الإذاعي، والذي وصل به إلى أسـماع القاصـي والـداني فـي أرجـاء أمتنـا العربيـة عبـر الإذاعـة المصـرية والإذاعات العربية كافة حاملًا إليهم ثراءه الثقافي وعمق اطلاعه المعرفي.

كما كان ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ محدِّثًا قديرًا جذابًا، يُمتع السامعين بسعة علمه ووفرة خبرته العلمية في الأدب وضروب الحياة من خلال حديث طريف ظريف لطيف، وذاكرة حاضرة واعية، وذكاء صائب.

ولقد كان لمولده في عام ١٩٠٨ م، في قلب مدينة "دمياط" ذات الطبيعة الجغرافية والتاريخية الملهمة، أثره في تشكيل وجدانه وإثراء وعيه، وتفتح ذائقته الفنية، وبزوغ موهبته الشعرية في سن مبكرة، والتي تجلت وأينعت بعد أن تخرج في كلية دار العلوم في عام ١٩٤٠م

و قـد أصـدر فـي حياتـه سـتة دواويـن شـعرية هـي: "صـورة الشـباب" ١٩٢٨، "الأشـواك" ١٩٣٢، "القيثـارة السـارية" ١٩٣٨، "راهـب الليـل" ١٩٨٣، "الليـالي" ١٩٨٦، و"دمـوع لا تجـف" ١٩٨٧، وهـي بالقلـة مـن

حيث الكم، إذا ما قورنت بحجم "طاهر أبو فاشا" الأدبي وكيفية شهرته، وفي ذلك يقول صديقه الشاعر الكبير "عبد العليم عيسى" في تصديره للأعمال الشعرية الكاملة، والتي أصدرها الشاعر السعودي "الشيخ عبد الحميد مشخص" على نفقته الخاصة في عام ١٩٩٢م، بعنوان (ديوان "طاهر أبو فاشا"):

"وقد تعجب حين تجد أن إبداع الشاعر لم يكن من الوفرة بحيث يناسب اسمه اللامع، وشهرته الأدبية العريضة، ولكن إذا عُرِف السبب بَطُل العجب، كما يقولون.."

ويستطرد "عبد العليم عيسى" في فقرة أخرى في التصدير نفسه قائلًا:

"لقد كان طاهر إذن أديبًا شاملًا، فهو شاعر، وهو قاص، وهو باحث، وهو كاتب درامي، وهو فقيه في اللغة، محيطٌ بدقائقها وأسرارها، ولكنه كان يعتز بالشعر أكثر من سواه، وطالما سمعته يقول في تحسر:

لقد جنت الإذاعة عليّ كشاعر، على الرغم مما حققته لي من شهرة.."

وجديرٌ بالذكر ما قاله عنه شاعر القطرين "خليل مطران"، في مقدمة ديوانه "الأشواك": "هو شاعر لا ريب فيه، ومجدد من طراز الذين لا يعوزهم قوة الديباجة وجمال العبارة"

ونذكر – أيضًا – ما قاله الأديب الكبير "ثروت أباظة" في مقدمته لأعمال "طاهر أبو فاشا" الشعرية:

"وقد كان طاهر خليقًا أن يكون أعظم شعراء جيله، فصياغته المنسابة الرصينة مع حداثة التعبير والقدرة الفائقة على اختيار الألفاظ الشعرية والتعمق في اللغة مع الموهبة الباذخة.. كل ذلك كان جديرًا بأن يجعل شعره منتشرًا في العالم العربي كله إلا أنه لم يكن مكثرًا، وقد شغلته الإذاعة وما اشتهر به من تمثيليات.."

ويضاف إلى ما تقدم قول صديقه الشاعر فاروق شوشة في مقال له بعنوان: "في صحبة طاهر أبو فاشا"، معلنًا عن "موهبة شعرية أصيلة، ولغة شعرية متميزة، وعن عالم جديد من الرؤى والتجارب والمواقف، واكتملت من خلاله سمات شاعر مقتحم الساحة ويفرض اسمه على المجتمع الثقافي والواقع الأدبي"

ولقد ذاع صيته كمؤلف إذاعي رائد قلما يجود بمثله الزمان، بعد أن قدَّم للإذاعة الكثير من الأعمال الشهيرة، ومنها "ألف ليلة وليلة" التي كتب منها ثمانمائة حلقة، وأوبريت "رابعة العدوية"، وأوبريت "أصل الحكاية"، وسلسلة "أعياد الحصاد"، كما كتب "ألف يوم ويوم" لإذاعة الكويت، وقام بتأليف بعض المسرحيات للتليفزيون المصري.

كما أصدر عدة كتب أدبية منها: "وراء تمثال الحرية"، و"العشق الإلهي"، و"الذين أدركتهم حرفة الأدب"، و"هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف".. ومن جملة أعماله نجد تنوع إبداعه وتعدد موهبته وسعة عطائه الأدبي.

ولقد كانت أعماله الإذاعية سببًا في ذيوع اسمه على ألسنة الناس كافة، وامتداد شهرته عبر الآذان القريبة والبعيدة. وقد أكد من هذه الشهرة وأعلى من قدرها قيام السيدة المطربة أم كلثوم ـ كوكب الشرق ـ بغناء عدد من قصائده والتي عُرفت بقصائد "رابعة العدوية"، والتي تضمنها ديوانه "راهب الليل"، وهي كالتالي:

* قصيدة "أحبك حبين" من ألحان الموسيقار رياض السنباطي، ومنها:

عرفْتُ الهوى مُذ عرفتُ هواكَ وأغلقتُ قلبيَ عمَّن عداكا
وقمت أناجيكَ يا مَنْ ترى خفايا القلوبِ ولسْنا نراكا
"أحبُّكَ حُبَّينْ: حبَّ الهوى وحبًّا لأنَّك أهلٌ لذاكا"

والبيت الأخير من شعر السيدة "رابعة العدوية"

* قصيدة "يا صحبة الراح"، وهي أيضًا من ألحان الموسيقار رياض السنباطي، ومنها:

" يا صُحْبةَ الراحِ: أهلُ الراح هل حانوا

وهل تغنَّت على أيامها الحانُ؟

صبا الندامى وما في الحانِ ألحانُ"

*قصيدة "في بحار الندم"، وهي– أيضًا – من ألحان الموسيقار رياض السنباطي، منها:

علـى عينـي بكـت عينـي علـى روحـي جنـت روحـي
هـــواك وبعــد مــا بينــي وبينـــك ســـرٌّ تبريـــحي

على عيني

على روحي

فيا غوثاه يا غوثاه

ومن طول النوى أوَّاه

وآهٍ آهْ

***قصـيدة "يقولـون لـي غنِّـي" مـن ألحـان الموسـيقار كمـال الطويـل، ومطلعها:**

غريبٌ على باب الرجـاءِ طريحُ

يناديكَ موصولَ الجـوى وينوحُ

يهونُ عذابُ الجسْمِ والروحُ سالمٌ

فكيف وروحُ المستهامِ جـروحُ

***قصيدة "لغيـرك مـا مـددتُ يـدًا"، وهـي أيضًـا مـن ألحـان الموسـيقار كمال الطويل، ومطلعها:**

لغيــــركَ مـــا مـــددتُ يـــدا وغيـــرُك لا يَفـــيضُ نـــدى
ولـــيس يَضـــيقُ بابُـــكَ بـــي فكيـــف تَـــرُدُّ مـــن قصـــدا

* **قصيدة "حانة الأقدار"، وهي من ألحان الموسيقار محمد الموجي، ومطلعها:**

حانةُ الأقدارْ

عربدتْ فيها، لياليها

ودار النورْ

والهوى صاحي

هذه الأزهارْ

كيف نسقيها، وساقيها

بها مخمور

كيف يا صاحِ

سألتُ عن الحبِّ أهْلَ الهوى

سُقَاةَ الدموعِ ندامى الجوى

فقالوا حنانَكِ من شجْوه

ومن جدِّه بكِ أو لهْوهِ

ومن كَدَرِ الليلِ أو صفوه

سلي الطيرَ إن شئتِ عن شدوهِ

ففي شدْوه همساتُ الهوى

وبرْحُ الحنينِ وشرْحُ الجوى

* وقصيدة "عروس السماء"، وهي أيضًا من ألحان الموسيقار محمد الموجي ومطلعها:

أوقـــدوا الشـــموسْ   انقـــروا الدفـــوفْ
موكـــبُ العـــروسْ   فـــي السمـــا يطـــوفْ
والمنـــى قُطـــوفْ   انقـــروا الـــدفوفْ
الرضـــا والنـــورْ   والصـــبايا الحـــورْ

والهوى يدورْ

آن للغريـــــبْ   أن يـــرى حمـــاهْ
يومـــه القريـــبْ   شـــاطيء الحـــياهْ

والمُنى قطوفْ
في السما تطوفْ
انقرواالدفوفْ

ولم تحقق هذه النخبة المبدعة من قصائده ما حققت من نجاحات فنية من فراغ، بل لأسباب فنية – أيضًا – منها: صوت أم كلثوم الذي تجلى الله عز وجل به عليها، وألحان كبار مبدعي فن اللحن والموسيقى: رياض السنباطي وكمال الطويل ومحمد الموجي، وقبل ذلك موهبة "طاهر

أبو فاشا" الفريدة في كتابة "الموشح" واستدعاء تقنياته الفنية وبراعته في استمالة ذائقة القاريء له ونيل إعجابه به من فرط ما به من صدق فني وموضوع إنساني، فضلًا عن تنوع الإيقاعات الوزنية الخاصة بفن الموشح، هذا بجانب حسن التقسيم واختيار الروي النافذ إلى القلوب قبل الأسماع، والقدرة على التشكيل اللغوي للجملة الشعرية، وهو ما اكتسبه من درايته باللغة العربية، كما في قوله: (يا صحبة الراح .أهل الراح هل حانوا.... إلى أخر المقطع)، واختلاف المعنى في (الراح) الأولى عن (الراح) الثانية، ثم الجناس الناقص في كل من: (هل حانوا)، (الحانُ)، (وألحانُ)، ويعمِّق من أثر ذلك الصدق في التعبير الهامس والشجن الخفي الذي ينبعث من معاني المفردات مثل النداء "يا" والسؤال بـ"هل"، والنفي بـ "ما"، وكلها تشكِّل حالة من التأمل والمعايشة وتوحد المشاعر، وعلينا أن نقرأ هذا المقطع بعد هذه الإضاءات:

" يا صحبة الراح: أهلُ الراحِ هل حانوا

وهل تغنَّت على أيامها الحانُ؟

صبا الندامى وما في الحانِ ألحانُ"

وإلى جانب ما تغنت به "أم كلثوم" نشيد "الجيش" من ألحان الموسيقار رياض السنباطي، ومطلعه:

مشى المجدُ في يومِهِ المرتقبْ   وأشرْقَ في عيده ما غَرَبْ

فقمْ حييَّ جيشَكَ جيشَ العربْ

حَمِيَّ الزمـامِ.. وجيشَ السلامْ

سلامٌ سلامْ   سلامٌ سلامْ

وتتأكـد قدرتـه الشـعرية الفائقـة فـي قصـائده الأخـرى التـي لـم تجـد الطريق إلى الألحان والغناء، ومنها الكثير الجدير بالذكر، ولكننا ننتقي منها على سبيل المثال، قوله في وصف الشاعر:

ما أشبه الشاعرَ في غمرتهِ

بمُمسكِ الخنجرِ من شفْرته

يذود بالمقبضِ عن حوزتهِ

يدمي فلا يدمي سوى راحته

وقوله لصورته الشخصية:

أنتِ رسمي؟ أم أنا قد صرت رسمًا   لحيـــاة صـــيرتني لـــي رســـما؟!
صــــورتي: هـل أنـتِ إلا كـل مـا   أبقت الأيام لي لحـما وعظما؟
أسمـــعيهم فــي ســـكوتٍ آهتــي   ربَّ صمــتٍ يملأ الأذهانَ فهما
أسمعـــيهم وأريهـم.. لـيس بدْعًـا   أن يروا أو يسمعوا عميًا وصمًّا
صـــــورْوا ذاتــي، فهـــلا صـــوروا   ألمـــًا قـد بِـتُّ أصـــلاه وهمَّـا

وقوله في وصف "النيل":

وأَعـزِزْ بهـذا النـيل والليـل نـــائمٌ   جرت روحه في الماء والنخْل جانبه

تراءى بسطح الماء صفًّا منكسًا وقد خشع التيارُ وانصاعَ صاخبه
وبات خشوعُ الكونِ أروعَ ما ترى إذا الليلُ سالت في البطاحِ ذوائبه

وبرغم ما عاشه طاهر أبو فاشا من شهرة إذاعية وشعرية، وبقدر ما حقق من وجود أدبي مرموق، إلا أنه قد ابتلي في أواخر حياته بمصيبتين قد هزته الأولى ولكنها كانت دافعا لأن يُصدر دواوينه الثلاثة الأخرى دفعةً واحدة بجانب أعماله الأدبية الأخرى، ولكن الثانية نالت منه العزم والقدرة على صد النوائب والتغلب على الأحزان.

أما المصيبة الأولى فهي فقده لزوجه السيدة "نازلي المهدي" عام ١٩٧٩، والتي من أجلها تغلَّب على حزنه الشديد لفراقها وقام بإصدار أعماله، وفي عام ١٩٨٧ أصدر ديوانه بعنوان "دموع لا تجف"، بإهداء نصه:

"إلى شريكة الحياة ورفيقة العمر التي سبقتني إلى دار البقاء.. زوجتي الطيبة الجميلة .. نازلي المهدي .. طاهر أبو فاشا.. ١٩٨٦"

ومن قصائده في هذا الديوان الذي أوقفه كله في رثائها، قصيدة بعنوان: "قلت للكأس"، ومطلعها:

"قلت للكأس والليالي غريمي

أين يا كأس كرُمتي ونعيمي

جمعَ الليلُ شاربيها فما لي

لا أرى بين شاربيـها نديـمي

فأجابت: من احتكمْ

لليالي فقد حكمْ"

وأما المصيبة الثانية فهي فقده لابنه الشاعر فيصل، الذي مات بغتة في سيارته وهو عائد إلى منزله في فبراير عام ١٩٧٩، وقد كانت هذه المصيبة بمثابة الضربة القاتلة لشاعرنا "طاهر أبو فاشا"، والذي كتب في رثاء ابنه، قصيدة قصيرة بعنوان: "قصيدة لم تتم"

كم ذا ألاقي من الأيـام يا ولـدي ولا أراكَ إذا يومـا مددتُ يدي

خوفي عليكَ وخوفي منكَ يملؤني رعبا من اليوم موصولًا برغْبِ غدي

هذا الذي كنتُ أرجوه ليحملَني فصرت أحملهُ شيخًا بلا جَلَدِ

لعل ما تقدم في الرثاء للزوج والابن هو قطع من الدم صيغت في قالب الشعر، ولكن أي شعر ذاك الذي يُكتب بالدم والنار، لكي يمكث في أرض الشعر والشعراء، والذي كان وراء رحيل شاعر سيظل مكتبة الشعر العربي وميكروفون الإذاعة وشاشة التليفزيون يعتزون بما قدم وأبدع، حتى فارق دنيانا إلى جوار ربه صباح الثلاثاء التاسع من مايو ١٩٨٩، بعد أقل من ثلاثة أشهر من رحيل ولده "فيصل"، وقد فاضت روحه بمستشفي القوات المسلحة بالمعادي ونظرته الأخيرة إلى ابنته "عزة" التي عادت لتراه وكُتب لها أن تودعه إلى مثواه الأخير.[1]

[1] مرجع هذه الرواية للشاعر عبد العليم عيسى في تصديره للأعمال الكاملة للشاعر "طاهر أبو فاشا" الصادر عام ١٩٩٢

وعزاؤنا أنه رحل بجسده وبقي في قلوبنا بأعماله المبدعة وحديثه الحلو وخفة ظله وعظمة شعره ودماثة خلقه، فهو الغائب الحاضر.

فلسطين في شعر "سميح القاسم"

لم تزل القضية الفلسطينية هي قضية كل المثقفين والأدباء والمفكرين العرب، وهي القاسم المشترك بجميع إبداعاتهم، و"سميح محمد القاسم" من كبار المجددين في حركة الشعر العربي المعاصر ويتميز شعره بالجمع بين صوت الشاعر الفرد وصوت الجماعة الذي يعكس نبض أمته العربية، وهو من الذين اختصتهم الأقدار أن يحملوا هموم القضية الفلسطينية حيث انبرت كلماته في ترسيخ الحق الفلسطيني على أرضه المغتصبة منذ مولده . عام ١٩٣٩م . حاملًا على كتفه نعشًا وفي كفه قصفة زيتون، فإما الموت وإما الحياة في سلام.. وهو ما جاء في قصيدته "أمشي":

"منتصب القامه

أمشي

مرفوع الهامه

أمشي

في كفي

قصفة زيتون

وعلى كتفي نعشي"

ويقول في قصيدة "مزمور الفلسطينيين":

"من هنا

من مطهر الأحزانِ

في الأرض الكليمه

أيها العالم

تدعوك القصائد اليتيمه

من هنا

من غزة الثكلى

ومن جينين

والقدس القديمه

هلّلويا

ذات يوم

كان في غزة مزمور حنينْ

لفلولٍ من أناسٍ طيبينْ

ذات يوم كان موالٌ حزينْ

يشعل النكبة في كل خيام اللاجئين

ذات يوم

كان في القدس صغارٌ ينشدون:

راجعون.. راجعون.. راجعون"

ويتأكد لنا أن القضية الفلسطينية هي قضية الشاعر التي يخوضها حاملا كلمات شعره سلاحًا ثائرًا في وجه عدوٍ يملك أحدث أسلحة الظلم، بيد أنه يقف في مواجهته بثبات وقوة دون خوف، ويقول في قصيدة "أعلنها"

"أعلنها.. وليشبع من خبز العارِ

الجوفُ الجبناءُ.. وأعداءُ الشمسْ

مازالت لي نفسي

وستبقى كلماتي.. خبزًا وسلاحًا.. في أيدي الثوار"

ويقول – أيضا في قصيدة "عناد":

"بكفاحي

بدمائي النازفات

من جراحي

سوف أستل صباحي

من نيوب الظلمات

همتي الساحة والصدْرُ سلاحي"

وقد لجأ الشاعر إلى التعبير عن قضيته في قوة وشموخ من خلال أنساق لغوية تعددت فيها التراكيب والمفردات الموجزة الموحية ذات الدلالات المؤثرة كما في:

"كان في القدس صغار ينشدون: راجعون.. راجعون.. راجعون"، و"ستبقى كلماتي.. خبزًا وسلاحًا.. في أيدي الثوار"، وأيضًا: "من جراحي.. سوف أستل صباحي"

فإذا تأملناها أيقنًا أن الشاعر قد أحسن توظيف كل مفردة في موضعها الذي قصد إليه، كما توفرت له القدرة الفنية في انتقاء الألفاظ التي تعالج قضيته شعرًا ينبض بالحماسة والمقاومة وروح الأمل والتفاؤل واليقين بأن النصر قادمٌ لا محالة.

ويكشف الشاعر عن قدرته الإبداعية . شكلًا وموضوعًا في قصيدته "اشربوا" وفيها تتفجر ذاته معبرة عن صوت الجماعة الذي يحمل الهم القومي، ويصرخ متوعدًا من سلب أرضه وقتل حلمه، ويُقسم إن الغدَ غدُهُ وإن جذور كل فلسطيني ستبقى لتبزغ من جديد ويقول فيها:

بعضُ الأغاني صرخةٌ لا تُطربُ فإذا استفزتكم أغانيَّ اغضبوا

يا منشئين على خرائب منزلي   تحت الخرائب نقمةٌ تتقلبُ
إن كان جذعي للفؤوس ضحية   جذري إله في الثرى يتأهبُ
هذا أنا! عريانُ إلا من غدٍ   أرتاح في أفيائه أو أُصلبُ
ولأجل عينيه وأعين أخوتي   أمشي وأعطي الدرب ما يتطلبُ
هذا أنا.. أسرجت خيل متاعبي   ودمي على كفي يغنّي.. فاشربوا

السمات الفنية، من حيث الشكل والموضوع، فمن حيث الشكل: أحسن الشاعر اختيار بحر الكامل تامًا بتفعيلاته "متفاعلن" ست مرات، وهذه التفعيلة تحتوي على خمس حركات، وتدفق الحركات في تفعيلات بحر الكامل يعطي الشاعر القدرة على البوح والاستمرار في طرح ما به من ثورة وغليان.. كما أحسن الشاعر اختيار حرف الباء المضمومة كروي للقصيدة وهذا الحرف من الحروف التي تنطق بضم الشفتين دلالة على الغيظ والغليل الدفين، فتردد هذه الباء المضمومة في نهاية كل بيت يُدْخِلُ المتلقي في معية الشاعر فيتوحد معه ويتضامن مع مضمونه.

ومن حيث المضمون: يتوازن الأداء النفسي والأداء الفني من خلال قدرة الشاعر في توظيف ألفاظ . جامعة مانعة . نجحت في التعبير عن مكنون نفسه وتحديد مقصده، كما في: (صرخة/ لا تطرب/ استفزتكم/ خرائب منزلي/ جذري إله/ هذا أنا/ عريان إلا من غد/ أعين أخوتي/ دمي على كفي/ اشربوا)، وقد ألهبت تلك المفردات الحماس في القصيدة بل أشعلت همنا القومي وأمدتنا بروح قتالية جديدة وعزيمة صادقة على الصمود.

وتتجلى أيضًا القدرة الفنية في صياغة الصورة الشعرية بنسيج شعري أساسي صادق غير مفتعل؛ فالصورة في هذه القصيدة جزءٌ لا يتجزأ من القصيدة لا نستطيع أن ننزعها أو نغيِّر فيها، ولنتأمل: "تحت الخرائب نقمةٌ تتقلبُ"، "جذعي للفؤوس ضحية"، "جذري إله في الثرى يتأهب"، "عريان إلا من غدٍ"، "أسرجت خيل متاعبي"؛ فكلها صور شعرية أحكم الشاعر صياغتها من غير تكلف أثرت بناء القصيدة وامتدت فيها وأصبحت سمة من السمات الفنية في شعر "سميح القاسم".

وفي قصيدته "أنا وأنتِ" يقدم لنا قصيدة عذبة من الشعر المعبر بالرموز عن النضال الفلسطيني؛ فيرمز بكلمة "المحبوبة" إلى فلسطين، وبالشمس إلى الأمة العربية، وبالرياح التي تجرف الرماد إلى الشعب الفلسطيني، ويقول:

"زنبقتان في الثلوج

وجمرتان في الرماد

ونورسان يحلمان بالخليج

أنا وأنت يا حبيبتي

وبعد ساعة من الزمان

ستفرغ الشمس من الرقاد

وتهدر الثلوج

جارفة زنبقتين للمروج

وبعد ساعة من الزمان

ستفرغ الريح من الرقاد

وتجرف الرماد

والجمرتان تصبحان نجمتين

لا تسأليني كيف يا حبيبتي وأين

وبعد ساعة من الزمان

يموت في السفائن الضجيج

والنورسان يمضيان يمضيان

ويحلمان يحلمان بالخليج"

والقصيدة ذات بناء شعري جزل، اعتمد فيه الشاعر على استخدام المعادل الموضوعي للتعبير عن أزمته دون أن يعلن أي حزن يحس، ودون لجوء إلى القوافي التي تشترط توافر الاستقرار النفسي وصلابة الروح وهو ما يفتقده في المقطع الأول من القصيدة.. ويمضي في قصيدته من خلال المعادلين الموضوعيين: زنبقتان ستتحرران من الثلوج وتجرفان إلى المروج، وجمرتان ستصبحان نجمتين، ونورسان يحلمان بالخليج..

ويعود الشاعر في الجزء الأخير من القصيدة إلى استخدام القوافي كما في:

"وتهدر الثلوج

جارفة زنبقتين للمروج"

و"يموت في السفائن الضجيج

والنورسان يمضيان يمضيان

ويحلمان يحلمان بالخليج"

وعودة الشاعر إلى استخدام القوافي تعود إلى شعوره بالاستقرار وإحساسه من تحقيق سعادته المنشودة، وقد أبدع الشاعر بتكرار: "يمضيان يمضيان "، وأيضًا "يحلمان يحلمان"، لتصوير حركة النورسين، وأيضًا مدى اتساع مساحات الطيران؛ مما رسم لوحة شعرية صادقة لما يتمنى الشاعر، أحسها المتلقي وشارك فيها.

وما أروع أن يطير الشاعر مغردًا في سماء وطنه محررًا يرفل في ثوب العروبة الأمن، ويحلم كما يحلم كل حر، فعبثًا أن تحفر الرياح جبين الشرفاء، وعبثًا أن ينهش اللهيب نخاع الأقوياء، وهذا ما يعلنه في قصيدته "من المدينة":

"هــذه بــذرتي وهــذي ذراعـــي وثيـــابي.. وأحرفـــي .. ومتـــاعي
أنا باقٍ .. باقٍ أنا حيث أمضي لــم أبــدِّلْ ملامـــحي بقنـــاعي"

فهو لم يزيِّف الحقيقة، ولم يتخل عن قضيته، ولم يمض في ركب من باع الوطن مقابل قبلة عبر زجاج كما وقع في قرية "سيرين" الفلسطينية، ويقول فيها:

"يُقال كانت قرية صغيرة صغيره

على الحدود بين باب الشمس والمعموره

يقال بيعت مرتين

مرة برطل زيت

ومرة بقبلة عبر الزجاج"

ففلسطين التي أصبحت ضحية دعوة ظالمة في عام ١٨٩٤م من الصهيوني "تيودور هرتزل" إلى إقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية إنجلترا تكون في الأرجنتين أو في فلسطين، على أن تتطور إلى دولة يهودية مستقلة، وأكد "هرتزل" على دعوته في عام ١٨٩٧م بمؤتمر دولي عُقد بسويسرا، وفي افتتاحيته قال: "إننا هنا جميعا لنضع حجر الأساس في بناء بيت يأوي إليه كل اليهود"، ثم اقترح برنامجًا من ثلاث نقاط:

١ - تشجيع حركة هجرة منظمة واسعة إلى فلسطين وتدعيمها..

٢ - الحصول على اعتراف دولي بشرعية هذا الاستيطان..

٣ - إنشاء منظمة لضم صفوف يهود العالم إلى القضية الصهيونية..

تلك هي الأهداف الثلاثة التي ما تزال هي الأهداف الأساسية للحركة الصهيونية، وقد وضع المؤتمر الخطة ورسم الأهداف للمنظمة اليهودية العالمية التي تتولى التخطيط والتنفيذ، وانطلق "تيودور هرتزل" بوصفه أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية إلى تحقيق هذه الدعوة..

وتلك "سيرين" ضحية هذا المخطط الدنيء، ومثلها كانت بقية بقاع فلسطين الحبيبة، حتى أعلنت دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨م على أرضها، محققة دعوة "هرتزل" السالفة، ولكنها المقاومة تطل من شعر "سميح القاسم" الذي تربى في قراها، وتعلم في مدارسها، وعمل في صحافتها، وترأس اتحاد الكتاب العرب فيها، تطل المقاومة ثائرة نارية في قصيدته "خطاب من سوق البطالة"

"ربما تصلب أيامي على رؤيا مذله

يا عدو الشمس.. لكن .. لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي

سأقاوم!"

فكيف لمقهور محتل أن يهدأ أو يساوم، وكيف لمن خُدِع أن يقدم الحُبَّ أو يطمئن، فشأنه شأن أطفال ١٩٤٨م الذين جنوا ثمار غرس الجهالة والخيانة والجريمة، لذا ولدوا كارهين لهذا القرن العشرين.. وتأمل قوله في قصيدة "في القرن العشرين":

"أنا قبل قرون

لم أتعود أن أكره

لكني مكره

أن أشرع رمحا في وجه التنين

أن أشهر سيفا من نار

في وجه البعل المأفون

أن أصبح إيليا

في القرن العشرين"

ويأتي يوم الخامس من يونيه ١٩٦٧م ـ حزيران الحزين ـ ليسلم كلَّ عربي ليأس مرٍّ، ونارٍ لا تُطفأ في القلوب، ويشتعل الشاعر في قصيدته "ريبورتاج.. من حزيران عابر":

"بين أنقاض حزيران التقينا

أنا والموت.. تداخلنا.. اشتعلنا وأضأنا"

ولكنه يسقط لكي ينهض ثانية مؤكدًا عمق جذوره في أرضه فلسطين وصدق إيمانه بقضيتها وتضحيته بكل ما يملك ـ الذات/ المال/ الحلم ـ من أجل فك قيودها، ويتضح لنا ذلك في قصيدته الحوارية التي تنتمي إلى الشعر الدرامي ذي الأصوات المتعددة، والتي يتجسد فيها موقف الإنسان المقهور، المغصوب الحق في مواجهة أحداث الكون الآنية وواقعه المعيش.. ويقول فيها:

"هو الأول: بابي سدرته يد أخرى

لكن يدي على المقبض

أسقط كي أنهض ثانية

أسقط ثانية.. كي أنهض

كورس : شكرا أيتها البشرية"

والشاعر قوي الإرادة، صلب العزيمة يفتدي فلسطين بنفسه وكتبه ويُوصي ابنته، التي تمثل الامتداد للمقاومة الفلسطينية، بأن تظل رمزًا للجهاد حتى يبزغَ فجرُ الحرية.. وفي قصيدة "النار" يقول:

خمدتْ ناري.. انهضي واحْتطبي   يا ابنتي اشتدَّ صقيعُ المغربِ
وإذا عزَّ علينا خطبٌ   يا ابنتي.. هاتي بقايا كتبي
وإذا ضنَّت بقايا كتبي   أحرقيني.. ومع الفجر.. اهربي!

يمتد في ابنته مؤكدًا أن لفلسطين بقاء ما دام في نسلها أبناء.

وذاكرة الشاعر لا تنسى أي درب وأي زمان في أرضه الحبيبة، ويعبر عن ذلك في قصيدته "إذا نسيت القدس" بقوله:

"لتنسني يميني

إذا نسيت القدس

ولتخلد على جبيني

وصمة عصر الموت والجنون

ولتنسى وجهي الشمس

ولينعب البوم على صوتي وأطفالي وزيزفوني"

ولا يخاف الشاعر سجنًا أو قيدًا فهو يرى أن العالم أجمع يعيش في زنزانة كبرى طالما أن وطنه في الأسر يئن، وقد أحسن التعبير عن ذلك في قصائده القصيرة، التي يسميها البعض "الإبجرامات" ـ أي القصيدة الومضة ذات التأثير المكثف السريع . ومنها قصيدة "خاتمة النقاش مع سجان"، ويقول فيها:

"من كوة زنزانتي الصغرى

أبصر أشجارًا تبسم لي

وسطوحًا يملأها أهلي

ونوافذ تبكي وتصلي

من أجلي

من كوة زنزانتيَ الصغرى

أبصر زنزانتكَ الكبرى"

وفي قصيدة "الأعلام" يرغب في إنزال الأعلام وإنهاء الألوان، رامزًا بذلك إلى عدم جدوى وجود الدول المختلفة التي تمثل عالمًا أفعى ظالمًا لا يدرك ولا يعي دموع الأمهات والصبايا الوالهات بعد أن ودعن أحبابًا في حروب مضت خُطى نارها على أحلام أرض خضراء فأشعلتها ظلمًا وغدرًا.. .. .. ويقول:

"أنزلوا الأعلام عن شمِّ القلاع

أنزلوا مهزلة الألوان عن شم القلاع"

و...

"لمن الرايات.. ملء الأفق.. في كل طريق؟!

ولمن تشبع من حنطتنا أفعى الحريق؟!"

ويعقد الشاعر الآمال على أطفال انتفاضة الحجارة في قصيدته "قصيدة الانتفاضة"، ويقول فيها:

"تقدموا

وراء كل حجر كف

وخلف كل عشبة حتف

وبعد كل جثة فخ جميل محكم

وإن نجت ساقٌ

يظل ساعدٌ ومعصم"

ووسْط كل هذا الغليان، وهذه الثورة الجامحة، يصرخ في وجه العالم ناشدًا البراءة، ومندًدا بالرصاص الظالم في قصيدته الرمزية "ضحايا حرب"، وفيها أحسن الشاعر استخدام العصفورة معادلًا موضوعيًا للبراءة والطهر والأمْن الجميل، وفيها:

"عصفورة مقطوعة الجناح

ضاقت بها الرياح

وسقطت في أحد المواقع"

ويقول – أيضًا – :

"مَنْ علَّم القناصه

أن يثقبوا الكتاب

من علم القناصه

أن يثقبوا رسائل الأحباب

وصور الأحباب

من علم القناصه

أيتها الرصاصه"

ويتقطع الشاعر حسرةً وألمًا وتفوح أنَّاته بنار غربته وغضبه على الرحيل من أرض الوطن، ويتجلى هذا المعنى في قصيدة "تغريبه" الموجهة إلى "محمود درويش" شاعر المقاومة الفلسطينية المعروف، وأخلص أصدقاء الشاعر ورفيق دربه، ويقول فيها:

"لبيروت وجهان

وجه لحيفا

ونحن صديقان

سجنًا ومنفي

قطعنا بلادًا وراء بلاد

وها نحن في تعتمات الدوار

نعود

وزاد المعاد

عناق سريع بباب المطار

أكان اللقاء اعتذار

أكان الوداع قرارًا

بدون كلام نمد اليدين

ويا ليل يا عين

لا الليل ليل

ولا العين عين

يفرقنا العالم اليعربيُ

ويجمعنا العالم الأجنبيُ

ونبقى أجانب في العالمين

ويبقى الرحيل.... "

ويجيبه صوت "محمود درويش" شعرًا مخاطبًا محبوبتهما فلسطين بقوله:

"أحبُّكِ

إنَّ ثلاثةَ أشياءَ لا تنتهي

أنتِ والحُبُّ والموت"

ويُطِلُّ "سميح القاسم" في قصيدته "أشد من الماء حزنًا" بصوت حزين وهم دفين ووجه يبوح بدمٍ يكتب في شكل قصيدة يقول فيها:

"ولدت مهدك أرض الدياناتِ

مهد الديانات أرضك

مهدك لحدك

لكن ستمكث في الأرض.. تلفحك الريحُ طلعًا

على شجر الله .. روحك يسكن طيرًا

يهاجر طيفًا ليرجع قبل الشتاء بموت جديد

وتعطيك قنبلة الغاز إيقاع رقصتك القادمه

لتنهض في اللحظة الحاسمه

أشد من الماء حزنًا

وأقوى من الخاتمه"

وتلك المرارة التي تنبعث من تلك القصيدة – التي نُشرت بجريدة "أخبار الأدب" في السابع من إبريل ٢٠٠٢– تمثل أحدث ما كتب "سميح" من قصائد وهي لا تزال تعبر عن ثورته وغضبه .. ولم تزل فلسطين هي الجرح الدامي في جسد الوطن العربي والنبضة الأسيرة التي لن يهدأ حال العرب والمسلمين إلا بفك أسرها، وعودتها حرة طليقة ..

وقد كان اختيارنا لتلك القصائد الموجهة إلى فلسطين والمعبرة عنها من شعر "سميح القاسم" محاولة منا للتعبير عن رأي كل عربي قد عبر عنه سميح في موقفه من القضية الفلسطينية.

وإبداع "سميح القاسم" الشعري لم يزل يعلو ويعلو في سماء الكون ليصبح سلاحًا في وجه عدو ظالم، وليمضي رجالًا تحارب وتدافع وتثور، فما أحوجنا – في هذا الزمان– إلى الكلمات الرجال، وما أحوجنا في قضيتنا الفلسطينية إلى شعراء في قامة "سميح" تنبض فلسطين فيهم موتًا وحياةً ونداءً يردد: نكون أو لا نكون..

وتـوفي الشـاعر الفلسـطيني سـميح القاسـم، بعـد صـراع مـع مرض سرطان الكبد الذي داهمه مدة ٣ سنوات والذي أدى إلى تدهور حالته الصحية في الأيام الأخيرة حتى وافته المنية يوم الثلاثاء الموافق ١٩ أغسطس٢٠١٤..

أحمد السمرة
ومعاصرة قصائده الإسلامية

"أحمد السمرة" أحد رموز الشعر السكندري، ولد في الإسكندرية في السابع عشر من مارس ١٩١٣م، وتوفي ودفن بها في الثامن عشر من ديسمبر ١٩٩١، بعد أن ترك لمكتبة الشعر العديد من الأعمال الشعرية والغنائية ومنها: ديوان شعر "أنسام وأنغام"، وديوان شعر "قصائد إسلامية"، ومسرحيتان شعريتان: "ساق من ذهب"، و"رِئبال"، فضلا عن العشرات من الأغنيات لمشاهير المطرين والمطربات.

ويتميز "السمرة" في تجربته الشعرية بالإضافة إلى كتابه "الطريق إلى الشعر"، بمعاصرة قصائده الإسلامية التي لم تقف عند حدود المناجاة الإلهية أو الإشادة بتعاليم الإسلام وشخوصه.. كما لم تقتصر على المضمون الصوفي أو الوجد الديني، ولم تكن غايتها الجمال والجلال كسمات للقصيدة الدينية، بل امتدت لتشمل بجانب كل ذلك معاصرة حية ومعايشة صادقة معبرة لقضايا وأفكار الواقع المتجدد في الزمان والمكان؛ فكان شاعرًا مضيفًا للقصيدة الإسلامية وما يضمن لها بقاءها وتجددها وما يجعل قارئها يجد فيها – دائمًا – ما يريد.

وتدور القصيدة الإسلامية عند أحمد السمرة في دوائر ثلاث:

* دائرة الوجدان الذاتي المتأمل في كون الخالق . سبحانه وتعالى . والمسبح بآلائه والمؤمن بفضائله وشمائله، كهذه الأبيات:

أنا بالله وحده وإليه

عبده ملكه وصنع يديه

هو ربي هدايتي ويقيني

ومعيني إذا افتقدت معيني

سامع للرجاء في كل حين

وكريم اعتمدت عليه

وأيضًا:

يــا عزيــز النـــدى ورب العنـــاية	إن لـــي مـــن رضـــاك أكـــرم غايـــة
أبعـد الـنفس عـن طريـق الغوايـة	يـــا عبيـــري إن غـــاب عنـــي العبيـــر

وأيضًا:

وديـار إسـلامي التـي أصـبو إليهـا	أنقـــى الديـــــار عطيـــرة الأكمــــام
لـي فـي رؤاهـا عـزة مـن "أحمـد"	ووشــــــــائج علويــــــة الأرحــــــام
وأرى بهــا اســم الله أسـمى منبـر	والحــــــق فيهـــا قبلتـــي وإمـــامي
أهـــدي إلـى نهـج الحيـاة رفـادة	سمحـــــاء مـــن بـــر ومـــن إنعـــام
المســلمون بــها شـموس نـورت	بالـــذكر إفهـــام المـــدى المترامـــي

وشأنه في ذلك شأن ابن الفارض ومحمد إقبال وأحمد شوقي ومن قبلهم حسان بن ثابت وابن زهير.

* وإذا انتقلنا إلى دائرة الوجدان الجماعي الذي يعانق قضايا مجتمعه وصوره الحياتية، فيعايشها ويعبِّر عنها ويضع لها الحلول والمخارج التي تنبع من قيم الإسلام الغرَّاء، كما في هذه الأبيات التي تقدم لنا الشيخ بائع الكبريت في صورة تجعلنا نشعر بمعاناته وكده اليومي وتوصينا بأن نكفله بالطريقة التي وضع حدودها وأرسى مبادئها، الدين الإسلامي.

من أجل قرشين كان الضيق معتركهْ

والخلق من حوله قد أرهقوا الحركةْ

في رحلة بعثار الجد لائذة

بين الهوان وخطو الذل مشتركةْ

يسترزق اليوم والأنظار تركله

صياد قوت مرير العيش ما سبكهْ

إلى قوله في القصيدة ذاتها:

يا جيرة العدل بالإسلام نكفله

كي يستريح فذل العيش قد دركه

هيا معا نكفل الإنسان ننشل من

ذاق الشقاء فجور الدهر من عركه

وهو بهذا يذكرنا بما جاء في قصيدة الشاعر الهندي طاغور "سارق الليل" عندما تعاطف حتى مع السارق الذي هو جزء من المجتمع.

* أما الدائرة الأخيرة فهي الوجدان الإنساني الذي أصبح لا يتحدد بحدود الذات أو المجتمع فحسب بل يمتد إلى التعبير عن الإنسان في كل مكان على وجه البسيطة، وقد استطاع الشاعر أحمد السمرة، التعبير عن ذلك تعبيرًا صادقًا فيما جاء في قصيدة "العامل" التي صوّر فيها ما للعامل من عطاء وأفضال، ثم عبّر عن الظلم الواقع عليه ومدى الاغتراب الذي يعيشه:

كم بنى للناس أبراجًا تحاشاها السحاب

كم تحدى الموت موصولًا بأهوال العذاب

خير يا رب أي خير محضره

باصطناع الرفق بالوعد الموشى خدروه

ثم صاغوا من جنى كفيه غلا قيدوه

طوعوه للهوى الفردي مرسى

صوروه في نهى الإقطاع ترسا

فانطوى المسكين مغلوب المنى رهن اغتراب

وقد اشتملت هذه الدوائر الثلاث التي تدور فيها قصيدة "أحمد السمرة" الإسلامية على أغراض عديدة منها القديم السلفي، كما في المناجاة الإلهية والتأكيد على القيم والتعاليم الدينية والافتخار بالمعارك التي انتصر فيها الإسلام على خصومه، ومنها المعاصر المواكب لأحداث الواقع سواء كان اقتصاديًا أو سياسيًا، فقد تعرّض في قصيدته "الفندق الجديد" لتبديد وطنه لثرواته وعدم اكتراثه بكنوزه وقيمة عملته المالية في الوقت الذي يُسر ويسعد بالسنتيم والدولار وهي عملات أجنبية:

وطني أنا ينبوع ثروته أس الغنى في كنزه البشري
وطني إذا ما عقني سندا ماذا يؤمل من جنى ثمري
وطني يبدد صعب عملته ويبش للسنتيم والدلر

وقد تفاعل مع أحداث الحرب الأهلية في لبنان؛ فعبّر عنها وأسقطها على واقع الوطن العربي المفكك وبرّر لذلك في قصيدته "يتخاطبون بغير ضاد":

متاعيس التفسخ في اضطراد وأين القدح يا نار الزناد
وأين الحزم في هدم الأعادي وهم يتخاطبون بغير ضاد

فنراه في هذا قد واكب "أحمد شوقي" عندما تعرض لقضية الخلاف بين الأقطار العربية في قصيدة "إلام الخلف بينكم إلام.. وهذي الضجة الكبرى علام".

ومن هذا يتضح لنا ما للقصيدة الإسلامية عند "أحمد السمرة" من سمات معاصرة من المجتمع ومضامين حية شعرية صادقة معبرة صيغت في لغة عربية سليمة سهلة ولم تخرج عن قواعد وأصول الأوزان الخليلية الأصلية، فكانت إضافة "محمودة" من الشاعر إلى ديوان الشعر العربي.

عبد الله النديم
وبعض التجديدات العروضية في أزجاله

ولد "عبد الله النديم"، في عام ١٨٤٣م بكفر عشري، قسم مينا البصل بالإسكندرية، لأب بسيط الحال، يعمل فرَّانًا، ويتسم بحُسن الخلق والكرم الوافر يدعى "مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحسني"، ويتصل نسبه بالحسن السبط[١].

وكان شأن "النديم"[٢] شأن عامة أولاد الشعب في حظّه من التعليم؛ إذ أرسله أبوه إلى كُتَّاب صغير على رأس الحارة، أظهر فيه تفوقًا ملحوظًا، ثم إلى مسجد "الشيخ إبراهيم باشا" بحي الجمرك بعد انتقال الأسرة إلى هناك، وفيه تلقى دروس اللغة والفقه، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يتم التاسعة من عمره.

ولكن هذا الفتى سرعان ما ضاق بما حُدّد له فانصرف تاركًا الدراسة في المسجد ليتفرج على المقاهي، ويقف عند المشاجرات، ويتابع الأدباتية، ثم يعود بمحصول وافر من القوافي والأزجال والسخريات والنكات، ينتقل من حال إلى حال متصعلكًا باحثًا عن شيء يريده ولا يعرفه، وعن هدف يبتغيه ولا يحدده.

---

(١) مقدمة كتاب "سلافة النديم في منتخبات السيد عبد الله النديم" جمع شقيقه عبد الفتاح النديم . الصادر ضمن إصدارات مكتبة الأسرة (القراءة للجميع) ٢٠٠٨

(٢) كنِّي بالنديم لمنادمته الكبراء والعظماء.

ثم يترك "النديم" الإسكندرية كلها، ويبدأ حياة مليئة بالسياحة والمشاهدة والخبرة؛ فلقد ذهب إلى القاهرة ليعمل في وظيفة "تلغرافجي" في القصر العالي الذي كان يقع في "جاردن سيتي" وتسكنه والدة الخديوي إسماعيل؛ فانتقل فجأة من حواري حي الجمرك إلى ردهات قصر إسماعيل، ومن مجتمع أبناء البلد وعمال البحر والحشاشين والنساء المكدودات إلى عالم الأمراء والأغاوات والمحظيات، ولكنه سرعان ما يخطيء، ويتشاجر مع خليل أغا رئيس أغاوات القصر، فيجتمع عليه الأغاوات يضربونه ضربًا مبرحًا، ويطرد ابن البلد من القصر.. ثم يبدأ رحلة أخرى من الترحال والصعلكة في دروب الحياة مرورًا بمدينة الدقهلية التي كان يعلم بها أولاد العمد ثم يفتتح دكانًا في المنصورة يبيع الخردوات، ثم يذهب إلى طنطا وفي أحد أيام المولد الأحمدي كان يجلس ومعه طائفة من أصحابه، منهم علي السيد علي أبو النصر الشاعر، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري الأديب الماجن، قطع عليهم اثنان من الأدباتية.

والأدباتية طائفة من الشحاذين يستجدون بأدبهم العامي وطلاقة لسانهم في الشعر، وحضور بديهتهم، عُرفوا بالإلحاح في الطلب، فإذا رددتهم بأي رد أخذوا كلمتك على البديهة، وصاغوا منها شعرًا يدل على استمرارهم في طلبهم، وسموا "أدباتية" جمع "أدباتي" وهي لفظة سخرية لأديب، فمر هذان الرجلان من طائفة "الأدباتية" على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله النديم؛ فقال أحدهما:

أنعم بقرشك يا جندي وإلا أكسينا أمال يا أفندي

أحسن أنا وحياتك عندي بقى لي شهرين طوال جوعان

فأجابه عبد الله النديم على البديهة:

أما الفلوس أنا مديشي وأنت تقول لي ما مشيشي
يطلع عليّ حشيشي أقوم أملّص لك لودان

فردّ "الأدباتي" وردّ "النديم"، وظلا كذلك نحو ساعة، غُلب الأدباتي فانصرف مهزومًا. وتصل هذه القصة إلى مسامع "شاهين باشا كنج" مفتش الوجه البحري . وكان من هواة ومشجعي أدب "الأدباتية" فيضحك كثيرًا، ويدعو النديم إلى مساجلة عنيفة بينه وبين كبار الأدباتية والزجالين.. تُعقد المساجلة في سرادق كبير يقام لذلك خصيصًا، ويخرج منها النديم، الأدباتي الهاوي، فائزًا على المحترفين!

على أن هذه الصعلكة تذهب عنه حين يعرف الطريق إلى قهوة "متاتيا" في القاهرة، في ميدان العتبة الخضراء، إذ يرى جمال الدين الأفغاني جالسًا هناك كل مساء يوزع أفكار الثورة وقد جلس حوله عشرة أو عشرون من التلاميذ.. هذان المتجاوران سوريان قد حملا إلى مصر بذور الثقافة الحديثة: أديب إسحق، وسليم النقاش.. وهذا الرجل المفتول الشوارب هو "سامي البارودي" الذي سيلعب دورًا رئيسيًا في الثورة العرابية بعد سنوات، وهذا الشيخ الشاب القصير وهو "محمد عبده".. أما هذا الطالب الأزهري الطويل القامة، فاسمه "سعد زغلول"، سيقود ثورة أخرى بعد عشرات السنين في سنة ١٩١٩، وسيصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب..

ومن هنا ارتفع النديم إلى مرتبة الأدباء ذوي الرسالة، وقد كان له دور مؤثر في الأحداث السياسية في البلاد، فقد تعرض بقلمه للخديوي إسماعيل ونبه الشعب إلى فساد تصرفاته وعبثه بأموال البلاد. ولقد وقف إلى جانب عرابي في ثورته وخطوته المناهضة للخديوي توفيق الذي كان لعبة في يد الإنجليز..

ولقد أصدر النديم ثلاث مجلات وهي "التنكيت والتبكيت"، و"اللطائف"، و"الأستاذ".. كما أسس جمعية علنية هي "الجمعية الخيرية الإسلامية"، وأنشأ لها مدرسة.

وقد نفيّ – بعدما ظل هاربًا من قبضة الإنجليز لمدة تسع سنوات . إلى يافا ثم عاد في عهد الخديوي عباس الثاني الذي عفا عنه عام ١٨٩٢م ثم نفيّ مرة ثانية إلى يافا ومنها إلى استانبول، ثم أدركه الموت بعد ما تمكن مرض السل من صدره، ليلة الأحد العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ في منفاه بالأستانة[١] ، وقد تقدم جنازته أستاذه العلَّامة "جمال الدين الأفغاني". ورحل مودعًا هذه البلاد بجسده وتاركًا فيها خطواته وأفكاره وشعره وزجله، وأعمالًا كثيرة ومنها فضلا عما تقدم ذكره كتاب "كان ويكون" الذي يعرض فيه آراء في الدين واللغة والسياسة والحياة، وأيضًا من كتبه الشهيرة "الاحتفاء في الاختفاء"، و"اللآليء والدرر في فواتح السور"،

---

[١] أودع جثمانه في مقبرة بمدافن (يحيى أفندي) في باشكطاش باستانبول على أمل العودة به إلى الوطن، وكتب على شاهد مقبرته:

" بالأمس كان غريبا في ديارهم .. واليوم صار غريب اللحد والكفنِ"

و"البديع في مدح الشفيع"، و"في المترادفات".. هذا بجانب أكثر من سبعة آلاف بيت شعر وروايتين هما "الوطن"، و"العرب".

وهو بحق واحد من أميز أدباء مصر وشعرائها وزجاليها وأحد الظواهر الوطنية والفكرية والأدبية العظيمة، ورمز من رموز مصر في القرن التاسع عشر، وقد لقب بـ "خطيب الثورة العرابية" لما له من دور بارز وفعال في الوقوف بجانبها.

ولقد كان لعبد الله النديم دور رائد ملموس ومؤثر في كتابة فن الزجل، فقد استطاع أن يجعل لنفسه بناءً عروضيًا جديدًا على الأسماع مميزًا له، لم تعرفه الإبداعات الزجلية منذ أن عُرفت على يد رائدها "ابن قزمان"، فهو صاحب البناء العروضي

مستفعلن فعلن فعلان مستفعلن فعلن فعلان

ولقد استطاع بهذا الوزن العروضي الذي يتفق وينبع من أوزان الخليل بن أحمد – واضع علمي العروض والقوافي – ولكنه، أي هذا الوزن العروضي الجديد، يُعد نهجًا عروضيًا جديد السمع والظهور.. ولقد استطاع به أن يتبنى قضية هذا الشعب ويبرزها ويسخر من الأوضاع الفاسدة للحاكم والإنجليز ويلفت نظر الشعب إلى الثورة وأفكارها ويلهب حماس كل مواطن ضد هذا الفساد.

ومن أشهر ما كتب على هذا النهج، هذا الزجل الذي يقول فيه:

أهل البنوكا والأطيان صاروا على الأعيان أعيان

وابـــن البلـــد ماشـــي عريـــان   مـــا معـــاه ولا حـــق الدخــــان

شرم برم حالي تعبان

ونلاحظ هنا هذا الإيقاع "مستفعلن فعلن فعلن"، وقد جاء في خمسة أشطر تكرر بعد ذلك مع ثبوت الشطر الخامس "شرم برم حالي تعبان" هكذا:

يـــا مـــا نصـــحتك يـــا بنـــــجر   وقلـــت لـــك إوعـــى تفنــــجر
فضـــلت تســـكر وتفنــــجر   لمـــا صـــبح بيتـــك خربـــــان

شرم برم حالي تعبان

وان كنـــت حرفـــي أو نحـــوي   والعلـــم فـــي ذهنـــك محـــوي
قـــالوا انـــا انـــا بـــوزي ملـــوي   يقـــول لنـــا عمـــرو وزيـــــدان

شرم برم حالي تعبان

وان كنـــت صـــانع متفـــنن   قالــــوا اخينــــا دا اتجــــنن
وبعـــد مـــا كـــان بيدنـــدن   صـــبح يقـــول شـــغلي ألـــوان

شرم برم حالي تعبان

ومن هذه المقتطفات نلاحظ ما لعبد الله النديم من سبق وتميز في استخدام هذا الإيقاع العروضي الذي يجسِّد ما يريد من معنى ويسخر منه، حتى أن الشعب كان من السهل أن يحفظ أزجاله وينقلها عنه ويرددها، ولقد نهج الزجالون من بعد النديم هذا النهج العروضي ونسبوه إليه.

أيضًا لعبد الله النديم استخدام عروضي آخر يُعد من الاستخدامات العروضية المستحدثة والرائدة في كتابة فن الزجل، عندما كتب:

اسـمع حكايـة تهـدي الشـوق لابن الذوق.. وتعجب الإنسان والجان

فالوزن المستخدم هنا على ثلاث شطرات في بيت واحد هكذا:

مستفعـلن فعلـــن ... فعلن فعلن.. مستفعلن فعلن فعلن

وعبد الله النديم بهذا لم يبدع فقط في الصياغة الزجلية الموضوعية ولكنه استطاع أن يبدع أيضًا في الصياغة العروضية الجديدة على الأسماع في هذا الزمان الذي عاش فيه.

رحم الله "عبد الله النديم" الذي كان رائدًا في التجديد العروضي لفن الزجل كما كان نبراسًا وقنديلًا في الحياة السياسية والاجتماعية.



"بيرم التونسي"، وبعض تجديداته في الأوزان

وُلِدَ "محمود محمد مصطفي بيرم التونسي" الشهير بـ "بيرم التونسي" في الثالث والعشرين من مايو سنة ١٨٩٣، في الإسكندرية في حي الأنفوشي بشارع البوريني بالسيَّالة، وتوفي في الخامس من يناير سنة ١٩٦١ بالقاهرة، ودُفِنَ بمقابر الوزير، وترجع أصول عائلته لوالده إلى تونس قبل أن يحضر إلى الإسكندرية ويستقر بها؛ لذا فهو تونسي الجنسية، وإن كان قائد عائلته في الأساس قائدًا تركيًّا أوفد إلى تونس على رأس حملة عسكرية. وقد التحق "بيرم التونسي" بالكُتَّاب القريب من مسكنه بحي السيّالة، وهو في سن الخامسة بزاوية "الشيخ خطّاب"، وبعدها انضم إلى حلقات الدرس في مسجد الإمام البوصيري، وقد تفرغ للعمل تاركًا التعليم بعد وفاة والده وهو في سن دون العاشرة، وقد تنقل بين الصيد والبقالة والتجارة وطلاء الحوائط وصناعة الهوادج، حتى توفيت والدته السيدة "نجيبة عبد الخالق أبو شال"، المصرية الجنسية، وهو في سن السابعة عشرة، وورث منها بعض المال الذي أتاح له أن يفتح لنفسه دكان بقالة.

وقد عاش عمره كله مناهضًا للاستعمار ومؤيدًا لكل مقاوم له، ولثوار الحركة الوطنية بدءًا من أول أعماله، وأشهرها قصيدة بعنوان "المجلس البلدي"، وقد نُشرت بجريدة "الأهالي" – وصاحبها "عبد القادر حمزة" –

وفيها يندد بظلم الضرائب وقسوتها على الشعب المصري، واستبداد الأجانب القائمين على المجلس البلدي وسوء معاملتهم للمواطنين المصريين، ومنها:

قد أوقع في القلب الأشجان والكمد   هوى حبيب يسمى المجلس البلدي

إلى قوله:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة   كم للعيال وكم للمجلس البلدي

وقد أصدر نشرة أسماها "المسلة"، وهي لا جريدة ولا مجلة، وصدر عددها الأول في الرابع من مايو ١٩١٩، وبه هجوم منه على الملك فؤاد . ملك مصر- وتمثل الهجوم في زجل شهير له بعنوان "البامية الملوكي والقرع السلطاني"، وفيه يصرح بأن وريث العرش "فاروق" قد ولد بعد أربعة أشهر من زواج والده فؤاد من نازلي:

الوزة من قبل الفرح مدبوحه

والعطفة من قبل النظام مفتوحه

لما جت تتجوز المفضوحه

قلت اسكتوا خلوا البنات تتستر

مرمر زماني يا زماني مرمر

وكان هذاالزجل سببًا في إغلاق المسلة وبداية لخطوات انتهت بنفيه خارج مصر إلى تونس ومنها إلى فرنسا، ثم العودة إلى مصر، ثم النفي إلى تونس، ثم إلى سوريا، وبعد رحلة قاسية من العذاب والنفي عبّر عنها في زجله:

الأوله.. مصر قالوا تونسي ونفوني	جزاة الخير وإحساني
والتانيه.. تونس وفيها الأهل جحدوني	وحتى الغير ما واساني
والتالته.. باريس وفيها الكل نكروني	وأنا "موليير" في زماني

ويعود إلى مصر بعد أن أصدر الملك "فاروق" قرار العفو عنه بعد توسط بعض أصدقائه لديه.

وقد كان لقيام ثورة ١٩٥٢ أثر طيب في حياة "بيرم التونسي" إذ وجد في رحابها المتنفس للحرية والاستقرار بعد سنوات نفي وعذاب، فراح يكتب مفتخرًا بها ومستبشرًا بأمجادها، وأول أزجاله عقب سماعه بقيامها:

العيد ده أول عيد عليه القيمه

ما فيهش تشريفه ولا تعظيمه

صابحين وأعراضنا أقلُّه سليمه

والقيد محطم.. والأسير متحرر

مرمر زماني يا زماني مرمر

وفي عام ١٩٥٣ يحصل بيرم التونسي على الجنسية المصرية، ويكتب زجله الشهير مؤكدًا حبه للزعيم "جمال عبد الناصر":

بعد الصبر ما طال

نطق الشرق وقال

حققنا الآمـــال

برياستك يا جمال

ويُعد "محمود بيرم التونسي" أشهر من كتب فن الزجل، فضلًا عن تميزه في كتابة المقامات وريادته في كتابة الأغنية؛ فقد تغنى بأعماله مشاهير المطربين والمطربات ومنهم: أم كلثوم، صالح عبد الحي، محمد عبد الوهاب، فريد الأطرش، وغيرهم.

كما كان له إسهام وفير في كتابة الأوبريت، ومن أشهر ما كتب أوبريتات: "يوم القيامة"، "عزيزة ويونس"، "العسل عسل والبصل بصل"، "برلمان الستات"، و"ألف ليلة وليلة"، بجانب الأوبريت الوحيد الذي تعاون فيه مع موسيقار الشعب "سيد درويش"، وهو "شهرزاد".

وحسبه قوله الذي يعتز فيه بمصريته:

أنا المصري كريم العنصرين

بنيت المجـد بين الأهرامـــين

جـدودي أنشـأوا العلم العجيب

ومجرى النيل في الوادي الخصيب

لقد كان بيرم التونسي يعيش ما يكتب ويكتب ما يعيش، فقد كانت قضيته واضحة ومحددة في كل أعماله، لذا نال ما نال من نبض في قلب الشعب، ومن صفحة شامخة في كتابة التاريخ. وإنه وإن أبدع في المضمون فأيضًا له إبداعه وريادته في الشكل ولا سيما تجديداته في أوزان "الخليل بن أحمد" وهو شاهد على تفرده وسبقه في هذا المضمار.

ولا نقول أن بيرم حين جدد في أوزان الخليل وتصرَّف فيها خرج عنها بل أنه استطاع تطويعها لمسايرة مضمونه، وللتعبير عن قضيته. ومن هذه التجديدات نختار على سبيل المثال بعض الأزجال للاسترشاد بها ومنها زجل بعنوان "على الأرغول" (حياتي) يقول في مطلعه:

الأولـه آه والتانيه آه والتالته آه

الأوله مصـر قالوا تونسي ونفوني

والتانيه تونس وفيها الأهل جحدوني

والتالته باريس وفي باريس جهلوني

ثم يعود فيكرر هذه الأشطر الثلاثة بنصها ويزيد عليها تفعيلة في كل شطر يروي من جديد، مثال: "الأوله مصر قالوا تونسي ونفوني . جزاة الخير"

ثم يعود مرة أخرى فيكرر ما أضاف إليه من قبل بالنص ويزيد عليه تفعيلة في كل شطر بروي جديد مثال: "الأوله مصر قالوا تونسي ونفوني – جزاة الخير – وإحساني"

ثم يعود مرة ثالثة إلى ميزان الأشطر الأولى مضيفًا إليها تفعيلة جديدة في آخرها ثم يعود مرة رابعة إلى ميزان الأشطر الأولى التي استعمل به زجله مثال: "الأوله أشكيها للي أجرى النيل"، ثم يختتمه بنفس البداية " الأوله آه، والتانيه آه، والتالته آه"، وهذا الشكل العروضي كان موجودًا من قبل بيرم واسمه "التشريع"[1] وهو تزاوج بين بحر وبحر وكان لا يخرج في مضمونه عن الحكم أو شكوى الزمن، وجاء بيرم وجدد في هذا من حيث الشكل بأن جعل الإيقاع يصعد تدريجيًا بزيادة التفعيلات حتى يصل إلى قمته ثم يبدأ في الهبوط تدريجيًا بنفس التفعيلات حتى يصل إلى ما بدأ منه.

أما من حيث المضمون فقد استطاع بيرم أن يجعل من هذا النمط سيرة ذاتية مكثفة جدا تتحدث عن مشوار حياته السياسي والاجتماعي والثقافي. وعلى غرار هذا الشكل كان لبيرم الكثير من الأزجال منها مثلًا زجل بعنوان "الفلاح"، وآخر بعنوان "على الأرغول"، وأيضا كان لبيرم السبق حين أتى بهذا التصرف العروضي في وزن بحر المتدارك وأصله "فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن" للشطر الأول ومثله في الشطر الثاني، إذ أتى به على وزن: "فاعلن فعلن فاعلن فعلن.. فاعلن فعلن فاعلن فعلن" حين قال:

---

[1] التشريع: هو زيادة عروضية يُقرأ بها بيت الشعر مكتمل المعنى، ويُقرأ. أيضا. بدونها مكتمل المعنى

"سبح الخالق اللي زيناه.. بالجمال دنيا سايبه نسوانها"

ولقد اتبع الشاعر أحمد رامي نفس النمط حيث قال:

"انتى فاكرانى ولا ناسياني.. يا للي ظالماني يا للي هاجراني"، وأيضًا: "ليه تلاوعيني وانتى نور عينى.. ايه جرى بينك ف الهوى وبينى"

علما بأن بحر المتدارك – وإن نُسِبَ للأخفش – يندرج تحت عنوان البحث "أوزان الخليل" نسبة للخليل واضع علمي العروض والقوافي.

وأيضًا تصرف بيرم في بحر المقتضب ومن صوره: "مفعولات مستفعلن.. مفعولات مستفعلن"؛ إذ أتى به في زجل "مراقص الزنج"، "فاعلات مفعولن.. فاعلات مفعولن"، مثال:

تحت في الظلام ضانصنج.. يجمع البدور والزنج

مخبوطين بحقنة بنج.. أحلى من حقن مورفين

وكان هذا التصرف في الشكل لضرورة واجبة وهي التعبير عن المضمون الذي يريده حتى إنك تشعر في نفس الزجل بدقات الطبول حين يقول: "طبلة العبيد السود".

وأيضا لبيرم السبق في الإضافة على أصل بحر البسيط وهو ما يسمى عند الزجالين ببحر الموال، ومن أمثلة ذلك زجل بعنوان "الفن" يقول في مطلعه:

"الفن ياهل الطبيعة روح تخاطب روح بلغاها"

فكلمة "بلغاها" هي تفعيلة أضافها بيرم على الأصل العروضي للبحر والتزم بها لتخدم ما أراد توصيله من مضمون، وعلى هذا المنوال زجل "الورد" حيث قال:

"يا ورد استنظرك قبل الربيع بربيع وأوهب لك العمر"

وفي الأمثلة السالفة أتى بيرم بالإضافات بعد تمام الشكل العروضي للبحر ولكنه في أزجال أخرى قدم الإضافة التفعيلية على الشكل العروضي للبحر، وجاء ذلك في زجل بعنون: "جران بولفار"، حيث قال:

"شوف الخفه.. أم الشعور اللفه فوق اللفه.. غير أم شعر طويل"

فالمقدم هنا "شوف الخفه" ولم يسبق أحد بيرم في هذا التصرف.

ولبيرم زجل بعنوان "غنيت" جاء في ثلاثة مقاطع مختلفة الشكل: المقطع الأول مستهل بـ "غنيت لقيت جيش يغني قلت ما أكترها . الأوله آه"... ثم يكمل البيت الثاني وينتهي بـ "التانيه آه"، ثم البيت الثالث وينتهي بـ "التالته آه" ثم يدخل المقطع الثاني بشكل آخر تمامًا من نفس البحر مسبوقًا بـ الأوله ليه، والتانيه ليه، والتالته ليه: "الأوله ليه يغني دللي صوته نشاز".. ثم يكمل البيتين الثاني والثالث على هذا النمط إلى أن يصل إلى المقطع الثالث مسبوقًا بـ

"الأوله مين والتانيه مين والتالته مين..

مين بكى عالقطن ويعدِّد على اللي جناه.. لطناشي"

وفي هذا الزجل شهادة على تفرد وسبق "بيرم" في التجديد في أوزان العروض وأشكال البحور، وهذه أمثلة من عديد من أزجاله المعروفة لدينا، والتي جدَّد فيها من حيث الشكل أو تصرف فيها من حيث الأوزان، ولم يكن ذلك من قبيل التجربة ولكن للوصول إلى الشكل الذي يجسد ما يريده من مضمون..

رحم الله بيرم ووفقنا في البحث عن لآليء فنه المكتوب.



صلاح جاهين .. الشاعر المفكر

سيظل اسم "صلاح جاهين" مضيئًا معطاءً في سجل الإبداع الثقافي المصري بكافة أشكاله وألوانه؛ فهو فنان متعدد المواهب، ابتكر عددًا من شخصيات الكاريكاتير الشعبية، وأثار برسوماته معارك سياسية وفكرية كبيرة، وهو أحد رواد الكتابة لمسرح العرائس في مصر، بل في الوطن العربي، كما كتب استعراضات كثيرة للتليفزيون وسيناريو وحوار للعديد من الأفلام، وأيضًا كان لأدواره التمثيلية في الأفلام السينمائية طبيعة المصري الشهم المنتمي إلى أرضه وناسه ومجتمعه.. ويتجلى ذلك في أفلامه: "المماليك"، "اللص والكلاب"، و"لا وقت للحب"..

وقد نال وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، كل ذلك إلى جانب عمله الصحفي الذي بدأه في عام ١٩٥٢، وتألقت أعماله الفنية في روزاليوسف، واشترك في إصدار مجلة صباح الخير، ثم انضم للأهرام عام ١٩٦٤

ولد "صلاح جاهين" في الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٣٠م بحي شبرا بمحافظة القاهرة لأب يعمل قاضيًا، اضطره عمله إلى أن يتنقل والأسرة، بين محافظات مصر، ولذلك فقد نال ابنه "صلاح" الابتدائية من محافظة أسيوط، وشهادة الثقافة من محافظة المنصورة، والتوجيهية من محافظة الغربية "طنطا"، ولم يكمل تعليمه في كلية الحقوق التي ظل بها

ثلاث سنوات، بيد أنه اتجه إلى تصميم المجلات وسرعان ما تفجرت موهبته الإبداعية في كافة ضروب الفنون، فظل اسمًا براقًا مبدعًا إلى أن توفاه الله في السادس والعشرين من إبريل عام ١٩٨٦م

وبرغم تفوق "صلاح جاهين" في كل أنواع الفنون السالفة، إلا أن اسمه كشاعر كان كافيًا لأن يجعله واحدًا من أبدع شعراء القرن العشرين في مصر، وواحدًا من أهم شعراء الإنسانية في العالم نظرًا لما قدمه من إبداع شعريٍ إنساني صادق وجديد ومعبر عن روح إنسان العصر وقضاياه من خلال خيال شعري جريء مغاير لما يجري عليه الشعر العربي، ويؤكد على ذلك ما جاء للأستاذ رجاء النقاش في دراسته بعنوان "صلاح جاهين الشاعر والإنسان":

"والفن العربي عمومًا، يشكو من النقص في جرأة الخيال وطموحه، فليس في أدبنا كله أكثر من موقفين أو ثلاثة تدل على تحليق الخيال العربي، وهذه المواقف هي فكرة "أبو العلاء" في "رسالة الغفران"؛ فقد تجرأ خياله الأدبي وتصور عالم الجحيم والجنة، وبنى صورة لهذا العالم، وهناك قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل التي تصور فيها إنسانًا يعيش في جزيرة منعزلة يبحث عن معنى المجهول وسر الحياة، وهناك أخيرًا بعض قصص "ألف ليلة وليلة"... ولكن الطابع العام للخيال الأدبي عند العرب والخيال الشعري على وجه خاص هو القصور، والعجز عن التحليق، ولذلك لم يظهر في أدبنا شاعر مثل ملتون أو بيرون، اللذين تصورا عصيان الشيطان في صورة التمرد والبحث عن المنطقة، وربطا بين فكرة التمرد

وبين الطموح، وليس عندنا شاعر مثل شكسبير أو دانتي، فالشائع في شعرنا العربي أن الشاعر يطير بجناحين صغيرين، لا يقدران على التحليق فالخيال كسول قاصر الطموح محدود بالواقع المادي، مشغول برسمه وتنظيمه عن طريق الحكمة والفلسفة"

والقارىء لإبداع صلاح جاهين الشعري يتأكد له ما جاء في سطور الأستاذ رجاء النقاش من خلال قصائد الدواوين الشعرية: "كلمة سلام" – ١٩٥٥، "موال عشان القنال". ١٩٥٦، "عن القمر والطين" – ١٩٦١، "رباعيات" – ١٩٦٣، "قصاقيص ورق"– ١٩٦٦، و"قصائد حب من مصر القديمة"

وفي ديوان "كلمة سلام" قدم "صلاح" مضمونًا شعريًا مغايرًا للمتعارف عليه فاستطاع أن يعبر عن الإنسان المصري البسيط ومشاعره ومعاناته؛ ففي قصيدة "زي الفلاحين" يقول:

القمح مش زي الدهب

القمح زي الفلاحين

عيدان نحيله جدرها بياكل في طين

زي اسماعين

ومحمدين

وحسين أبو عويضه اللي قاسى وانضرب

علشان طلب

حفنة سنابل ريَّها كان بالعرق

عرق الجبين

القمح زي حسين يعيش ياكل في طين

أما اللي في القصر الكبير

يلبس حرير

والسنبلة

يبعت رجاله يحصدوها من على

عود الفقير"

نلمح من خلال هذه القصيدة الإحساس العميق بطبيعة هذا الفلاح المصري وعلاقته بالقمح المحصول الزراعي الأساسي لحياة المصريين، وكيف استطاع "صلاح جاهين" الربط بينهما وتفجيره لصورة كل إقطاعي يمص دم الفلاحين دون مقابل.

وفي قصيدة "الشاي باللبن" من ديوان "كلمة سلام" أيضًا يقدم لنا صورة من صور الحب الأسري النبيل ويؤكد أن بالحب نصل إلى السلام، وتأمل قوله:

"أربع إيدين على الفطار

أربع شفايف يشربوا الشاي باللبن

ويبوسوا بعض ويحضنوا نور النهار
بين صدرها وصدره وبين البسمتين
ويحضنوا الحب اللي جمعهم سوا
على الفطار
ويحضنوا الشمس اللي بتهز الستار
وتخش من بين الخيوط وبعضها
مع الهوا
للأودة ترسم نفسها على أرضها
على البساط اللي اشتروه مع الجهاز
على الغرام اللي اشتروه من غير تمن
وعلى القزاز
ويشربوا الشاي باللبن
في فنجالين
على الفطار أربع إيدين
ودبلتين

بيصحّوا قلبي كل ليلة في المنام

وبيكتبولي بلون منور فزدقي

على الهوا الأسود وِع الجفن اللى نام

كلمة "سلام"..."

وفي قصيدته "الزباين" بنفس الديوان يقول:

"ناس كتير ف البلد دي زيك وزيي

كلنا مولودين في أحوال تعيي

الفرق مشترك في حيك وحيي

في الحسين والإمام وغمره وشبرا"

يتوحد مع كل فرد من أفراد الشعب ويشعر بهمه وأناته ويصوغها شعرًا فيقدم لنا الناس وصورهم وهو مضمون إنساني صادق.

وفي "موال عشان القنال" يعبر عن فرحته بانتصار مصر وخروج المحتل الغادر، وأمله الكبير المنعقد على ثورة ١٩٥٢ في تحقيق كل آمال المصريين فيقول:

"سلامات يسعد صباحك

دي بلدنا

خد براحك

يا حمام افرد جناحك

تسلم إنشا الله"

"يا ما راح نسمع بشاير

طلي يا مه

يا م صابر

ما بقاش ع الجسر غادر

ماشي يتسلى"

"ما بقاش ع التل غيرنا

والحبايب

بتناصرنا

يا حمام انزل في خيرنا

والقط الغلَّه"

نلاحظ استخدامه الموفق للمفردات "سلامات/ يسعد صباحك/ يا حمام/ بشاير/ خيرنا/ الغلَّه)، وكلها مفردات تعكس الدلالة على الأمل والانتصار والأمان والخير الذي تنتظره مصر بعد قيام ثورة ١٩٥٢..

ويبدو لنا مما سبق أن صلاح جاهين هو صوت الشعب يطل من خلال قصائد عبرت عن تراث هذا الشعب المصري العريق، وهو بذلك يمثل ذاكرة الجماعة والتعبير عن إرادتها ومرادها وأحوالها.. ويؤكد ذلك ما جاء في دراسة الأستاذ "شوقي عبد الحكيم" بعنوان "المشاركة في الغلب" كمقدمة لديوان "كلمة سلام":

"من فضائل صلاح جاهين تمثله "اللا واعي" لما يسميه علماء الأساطير بـ "ذاكرة الجماعة" تلك التي تسمو بالشعر والشاعر حيث تعلو هامته إلى الآفاق العلوية للأسطورة، ويبدو هذا فيما اختزنه صلاح من وحدات وأفكار وتضمينات الفولكلور المصري، حين يتحدث عن الطببب والبين والعليل وعيون البقر وغدر الزمان والسحالي وملل أيوب والراقصة الخرساء ومش الخبايز والباب المقفول، وذلك القرف المشترك العام في قصيدته الزباين"..

وهذه الطاقة الشعرية للشاعر "صلاح جاهين" التي جسدت لنا حقول الشعر الفولكلوري والأساطير والمخزون الهائل من آيات ومعارف ورموز العالم القديم تتضافر بجرأة الخيال الشعري وتصل إلى قمة الإبداع الشعري في قصيدة قصيرة، كبيرة الأثر بعنوان "بكائية"، يقول فيها:

"نزل المسيح من ع الصليب

نزل ونام

في مرج دمع

من غير قميص

وتلج شمع

والمجدلية تميل عليه وتنوح تنوح

تنده عليه

تلاغيه

تولول

تحضنه

تندب عليه وكأنها بتهنِّنه

تجدل له مهده من جدايل شعرها

وتدفنه في صدرها

ما رضعش منها إلا جرح من الجروح"

فنزول المسيح من فوق الصليب ونومه في "مرج دمع" تعبيرًا عن الحزن، والمجدلية نبع من منابع الحنان والحب واتساع الخيال الشعري في هذا الربط وحسن التعبير عنه شعريًا من خلال القدرة على رسم الصورة الشعرية وبناء الموقف الشعري الذي يعكس لنا التأمل الفكري من خلال الحلول الشعري

وقد وجد "جاهين" نفسه في البناء الدرامي الشعري، وذلك من خلال العديد من الأوبريتات أو الصور الغنائية وأهمها: "الليلة الكبيرة"،

و"المكن".. ولقد كُتِب لـ "الليلة الكبيرة" الشيوع والانتشار والنجاح المبهر، بعد أن تغنى بها الشعب وأحبها وأصبحت بعض جملها الشعرية معادلًا موضوعيًا لوجدان هذا الشعب وعلى سبيل المثال:

"اللي شاف حمص ولا كلشي

حب واتلوع ولا طلشي" ... أو

"يا عريس يا صغير

علقة تفوت ولا حد يموت

لابس ومغير

وحتشرب مرقة كتكوت"

ولعل السر في نجاح هذه الصورة الغنائية . التي تناولت صورة "المولد" والتي تعكس عادات وتقاليد الشعب المصري في هذا الموقف . يعود إلى قدرة صلاح جاهين في اختيار الشخصيات المصرية وإبداعه في التعبير عن حوارها من خلال ألفاظ وجمل نابعة من سمات هذه الشخصيات وأبعادها النفسية والاجتماعية والاقتصادية، لذا التصقت بروح هذا الشعب فرددها وتغنى بها.. وأيضًا يُحسب له بناؤه الدرامي الشعري المحكم لهذه الصورة الغنائية بحيث لا يقدر المتابع لها أن يختزل منها جملة أو عبارة بل يظل مشدودًا لها حتى نهايتها..

ويعترف صلاح جاهين بفضل فؤاد حداد عليه شعريًا؛ فقد أشاد بتجربته الشعرية الرائدة وقوة مضمونها التي وقف أمامها وأفاد منها كثيرًا..

وقد شكّل "صلاح جاهين" مع مجموعة من الشعراء الذين يكتبون بالعامية المصرية، مدرسة جديدة في الشعر المصري، وهم "سيد حجاب"، "عبد الرحمن الأبنودي"، و"فؤاد قاعود"، و"عبد الرحيم منصور"، و"فريدة إلهامي"، و"مجدي نجيب".. وتتجلى روح هذه المدرسة في التعبير عن وجدان الشعب المصري، إلا أن صلاح جاهين قد تميَّز وسط هؤلاء بعديد من الميزات أهمها هو القدرة على التأمل الفلسفي وربطه بالمضمون الشعري، وقد تجسد ذلك في رباعياته التي أشاد بها الأستاذ يحيى حقي في دراسته الأدبية بقوله:

"لم يهدد أحد اللغة الفصحى كما هددها صلاح.. ضع في كيس واحد كل ما كتب من أزجال وقصائد وأغان، فلن يصعب عليك أن تلقيه في أول كوم زبالة يقابلك في سوق التوفيقية، حتى بيرم التونسي لم يشكل خطرًا على الفصحى لأنه اقتصر على المحاكاة والوصف، أما صلاح فقد رفع العامية بعد أن طعَّمها بالفصحى وثقافة المثقفين. فهي في الحقيقة لغة ثالثة. إلى مقام اللغة التي تستطيع أن تعبر عن الفلسفة شعرًا، وهذا خطر عظيم، ومع حبي لهذه الرباعيات أتمنى من صميم قلبي أن تكون عاقرًا فنحن في غنى عن هذه البلبلة التي لابد أن تصيب حياتنا الأدبية؛ فالإجادة في هذه اللغة الثالثة لن تكون إلا فلتة من الفلتات، فلو استخدمها كل من هب ودب تحول غذاؤنا كله إلى بضاعة دكان التسالي: لب وفول وحمص وفشار. ونحن من علمنا بهذا الخطر لا نستطيع أن نتجاهل هذه الرباعيات وإلا كنا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال"

ويتضح لنا مدى الأثر الفني لرباعيات صلاح جاهين وتطورها من حيث المضمون وأيضا الصياغة الأسلوبية التي جعلت الأستاذ "يحيى حقي" يقر بأنها لغة ثالثة يصعب أن تُحاكى أو تُقلد.

ولقد عبرت هذه الرباعيات عن أغراض إنسانية ومضامين حياتية وألوان فلسفية عديدة يصعب حصرها ولكن على سبيل المثال منها، هذه الرباعية التي ترفض التعالي والكبر، وتعترف بأن كل ابن آدم من أصل طين وللطين مهما ارتفع سيعود:

ياطير يا عالي ف السما طظ فيك

ما تفتكرش ربنا مصطفيك

برضك بتاكل دود وللطين تعود

تمص فيه يا حلو.. ويمص فيك .. عجبي!!

ونلاحظ هنا دقة استخدام مفردة "طظ فيك"، وهي لفظة عامية جرى العرف على شيوعها بمعنى لا جدوى منك، وأصلها كلمة تركية بمعنى "الملح" حيث كانت هناك ندرة شديدة في الملح أيام الولاية العثمانية على مصر فكان شرط المرور من البوابات هو أن يأتي من يريد المرور بالطظ أي الملح.. وهي في هذه الرباعية تُستخدم بمعنى لا أهمية لك أو لا جدوى منك، وقد أحسن "صلاح" استخدام المعادل الموضوعي من خلال الطير العالي للدلالة على الارتفاع والتحليق في السماء، وهو يعكس لنا شخصية

الإنسان المتكبر المتعالي، ولكنه يؤكد على أن ارتفاع هذا الطير مهما طال مرده إلى الأرض..

وفي رباعيته:

حاسب من الأحزان وحاسب لها

حاسب على رقابيك من حبلها

راح تنتهي ولا بد راح تنتهي

مش انتهت أحزان من قبلها .. عجبي!!

وفي هذه الرباعية يؤكد على قوة النفس وسعة الإرادة من رفضه للحزن وإيمانه بأن الحزن سيزول وينتهي، وهي سمة إنسانية قوية.

وفي رباعيته:

خرج ابن آدم م العدم وقلت ياه

رجع ابن آدم م العدم وقلت ياه

تراب بيحيا وحي بيصير تراب

الأصل هو الموت ولا الحياه .. عجبي!!

وهنا يدخلنا في حالة من التأمل والتفكير في علاقة ابن آدم بالموت والحياة، والجميل في هذه الرباعية هو أن القاريء يقف أمام خيال شعري

عميق جريء يجعله يفكر مع الشاعر ويتوحد معه فيما يقصد، ويتأكد ذلك أيضًا في رباعيته:

مع إن كل الخلق من أصل طين

وكلهم بينزلوا مغمضين

بعد الدقايق والشهور والسنين

تلاقي ناس أشرار وناس طيبين... عجبي!!

ويقدم لنا الحكمة والنصيحة في رباعيته:

ولدي نصحتك لما صوتي اتنبح

ما تخافش من جني ولا من شبح

وان هب فيك عفريت قتيل اسأله

ما دافعش ليه عن نفسه يوم ما اندبح .. عجبي!!

وفي هذه الرباعية كمواجهة مع النفس وعلاقتها بالأشياء، وموضع الإنسان منها ومحاولة الخروج من المأزق بالتبرير والتعليل المقنع، وقد أحسن استخدام توجيه الخطاب إلى الابن فهو أقرب الناس إلى الأب، والأب حريص على أن يكون ابنه أحسن منه حالًا وموقفًا، لذا فهو يقدم له النصيحة والرشد.

ويؤكد على ضرورة أن يعبر الإنسان عما يشعر به ويحياه في رباعيته:

يا عندليب ما تخافش من غنوتك

قول شكوتك واحكي على بلوتك

الغنوة مش ح تموتك إنما

كتم الغنا هو اللي ح يموتك.... عجبي!!

واختيار المفردة في رباعيات صلاح جاهين ليست على سبيل المصادفة ولكنه مقصود ودقيق بحيث يصعب استبدالها، وتأمل تعبيره عن صورة المهرج وسط المجموع الإنساني واعترافه بعدم الاستطاعة التي يمكن أن تخيف الغير:

أنا قلبي كان شخشيخة أصبح جرس

جلجلت به صحيوا الخدم والحرس

أنا المهـــرج .. قمتوا خفتوا ليه

لا ف إيدي سيف ولا تحت مني فرس.... عجبي!!

وقد يلجأ إلى استخدام بعض الألفاظ العربية الفصحى، وذلك لصنع موسيقى صوتية ظاهرة من خلال المفردات بجانب الموسيقى العروضية في الرباعية، وذلك لتأكيد المعنى ولفت الأنظار بوضوح إليه:

عجبي عليك.. عجبي عليك يا زمن

يابو البدع.. يا مبكي عيني دما

إزاى أنا اختار لروحي طريق

وأنا اللي داخل الحياة مرغما... عجبي!!

ويتعجب في واحدة من أحلى رباعياته التي تعكس حالة من حالات الدهشة والحيرة من أحوال الدنيا:

رقاصة خرسا ورقصة من غير نغم

دنيا يا مين يصالحها قبل الندم

ساعتين تهز بوجهها يعني لا

يترجرجوا نهديها يعني نعم... عجبي!!

ويعقد مقارنة بينه وبين عود الحطب من خلال غصن الخوخ الذي يتأثر بالربيع فيزهر بينما هو لا يتجاوب ولا يتفاعل معه، معبرًا عن موقفه السلبي من الأحداث والمتغيرات:

تسلم يا غصن الخوخ يا عود الحطب

ييجي الربيع.. تطلع زهورك عجب

وأنا ليه بيمضي ربيع وبييجي ربيع

ولسه برضك قلبي حته خشب... عجبي!!

وهي صورة لحالته النفسية، وسرعان ما يقدم صورة نفسية أخرى، ولكن من خلال الدعوة إلى الحركة والرقص والتفاعل مع الحياة والدنيا:

غمض عينيك وارقص بخفة ودلع

الدنيا هي الشابة وانت الجدع

تشوف رشاقة خطوتك تعبدك

لكن انت لو بصيت لرجليك تقع.. عجبي!!

وهو يكره السدود والحواجز والحدود لدرجة رجائه من الله ألا يدخله الجنة لأنها ذات سور، وهو موقف شعري يعبر عن رفضه للقيد والأغلال:

البط شال عدى الجبال والبحور

يا ما نفسي أهج.. أحج ويا الطيور

أوصيك يا ربي لما أموت والنبي

ما تودنيش الجنة.. للجنة سور... عجبي!!

وفي رباعية أخرى يعكس لنا فيها دموية الإنسان وما صارت إليه أحداث الحياة من حروب وقتال ودماء:

على رجلي دم.. نظرت له ما احتملت

على يدي دم.. سألت: ليه؟ لم وصلت

على كتفي دم وحتى على راسي دم

أنا كلي دم.. قتلت؟ ولا انقتلت.. عجبي!!

ويعترف بضرورة أن يعيش الإنسان حياته بين حزن وهم، بجانب الاستقرار فلا حياة بدون كبد ومشقة ومعاناة:

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح اختفي

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مُتّ؟ .. ولا وصلت للفلسفة... عجبي!!

ومما تقدم من رباعيات – على سبيل المثال – تتأكد لنا قدرة صلاح جاهين الشعرية والفلسفية على تفجير صور الحياة والإنسان والأشياء، ونجاحه في إدخال قارئها في حالة من التأمل والاندهاش، وإعادة التفكير فيما قرأ والوقوف أمامه..

ولا يُنكر دور "صلاح جاهين" في إثراء الأغنية المصرية بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢؛ فقد لقب بشاعر الثورة بعد أن قدم مع المطرب الشاب – وقتها – عبد الحليم حافظ والملحن كمال الطويل مجموعة من الأغنيات التي عبرت عن روح الثورة ومبادئها ومنها "صورة":

صورة صورة صورة

كلنا كدة عايزين صورة

صورة للشعب الفرحان

تحت الراية المنصورة

يا زمان صورنا

صورنا يا زمان

ح نقرب من بعض كمان

واللي ح يبعد م الميدان

عمره ما ح يبان ف الصورة.

وأيضا أغنية "بالأحضان":

بالأحضان بالأحضان بالأحضان

بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان

ف معادك يتلموا ولادك

يا بلادنا وتعود أعيادك

والغايب ما يطيقش بعادك

يرجع ياخدك بالأحضان

وبعد صدور قوانين يوليو الاشتراكية كتب أغنية "بستان الاشتراكية"، ويقول فيها

افتح.. افتح

اقفل .. حول

نقعد نرتاح؟

لا ح نكمل

ده السد العالي شهَّل

على راسي بستان الاشتراكية

واقفين بنهندز ع الميه

أمة أبطال، علما، وعمال

ومعانا جمال..

بنغني غنوة فرايحية

نندهكلنا ندهه فلاح لاخواته، ساعة الري

حاكم أرضنا ملكناكلنا م السد العالي وجي

نندهكلنا ندهه قوية

افتح...

وكانت هذه الأغنية بعد تحويل مجرى النيل. مايو ١٩٦٤، وفي عام ١٩٥٦ كتب "والله زمان يا سلاحي" معبراعن صرخةكل مصري في وجه العدوان الثلاثي (انجلترا – فرنسا – إسرائيل) على مصر، وتغنت بها السيدة أمكلثوم من ألحانكمال الطويل، وقد صارت فيما بعد النشيد الوطني لمصر:

والله زمان يا سلاحي

اشتقت لك في كفاحي

انطق وقول أنا صاحي

يا حرب والله زمان ..

وقد حرص في أغنياته على الإشادة بمحاصيل مصر وإبراز أهميتها في حياتنا، ومنها أغنية للقطن:

يا معجبـاني يا أبيض يا معجباني

يا قطن يا للي مبيض وش الغيطـاني

يا معجباني يا أبيض يسعد صباحك

يا قطـن ياللي مبيض وش فلاحـك

وبعودة الأيام يا حبايب في سلام

ولكـن أحلامـه وآمالـه قـد تكسـرت بعـد وقـوع هزيمـة يونيـو ١٩٦٧ وشعر كما شعر كل مصري بإحباط شديد، دخل على أثره في اكتئاب مرير وقد عبر عن ذلك في أغنيته الشهيرة: "مفترق الطرق"، ويقول فيها:

ساعات أقوم الصبح قلبي حزين

أطل بره الباب ياخدني الحنين

اللي لقيته ضاع

واللي اشتريته انباع

واللي قابلته راح وفات الأنين

ونتأمل هنا مدى المرارة والحسرة والانكسار بعد ضياع حلمه وأمله في وعود ثورة يوليو ١٩٥٢، ولكنه في نفس الأغنية لم يفقد الأمل بل عاد موجها الخطاب إلى الزعيم جمال عبد الناصر، بقوله:

إيه العمل في الوقت ده يا صديق

غير إننا عند افتراق الطريق

نبص قدامنا

على شمس أحلامنا

نلقاها بتشق السحاب الغميق

وأرجع وأقول

لسه الطيور بتفن

والنحلايات بتطن

والطفل ضحكه يرن

مع إن مش كل البشر فرحانين

ويتجدد أمله وتبعث روحه من جديد في مجموعة من أغنياته، ومنها لسعاد حسني من ألحان كمال الطويل

الدنيا ربيع والجو بديع

قفل لي على كل المواضيع

وأيضا: "بمبي الحياة بقى لونها بمبي"، وقدم من خلالها تذكرة علاج نفسية في قوله:

خد شمس وهوا على ميه

بلا عيا بلا دوا بلا مر

ولا نغفل أغنياته الرقيقة لمجموعة من مشاهير المطربين والمطربات والتي كانت تحمل سمات الصدق الفني من صياغة شعرية سمت بالأغنية وارتفعت بحس مرددها وسلوكه ومنها على سبيل المثال، أغنية "عيون الحليوة" لنجاة الصغيرة:

بان عليا حبه

من أول ما بان

يا ما كان في نفسي والله أعشق من زمان

كان الحب حبه

بان.. طرحت محبه

وعيون الحليوة يا عيني بحر من الحنان

وأغنيته لصباح:

أنا هنا يابن الحلال

لا عايزه جاه ولا كتر مال

باحلم بعش أملاه أنا

سعد وهنا"

وأيضا أغنية لسيد مكاوي:

ليلـة امبـارح مـا جـانيش نـوم   واحنـــا لســـه ف أول يـــوم
قبــل مــا ترمينـــي ف بحــورك   مـــش كنـــت تعلمنـــي العـــوم

وأغنية لعلي الحجار:

ولد وبنت

ولد وبنت

كل الجنينة

ولد وبنت

يا حب حاسب ده هنا

وردة ولد

ووردة بنت

وأغنيته للمطربة العالمية "داليدا": "كلمة حلوة وكلمتين حلوة يا بلدي"

وقد أدى بصوته أغنية للشباب بعنوان"تحت العشرين"، والمتأمل فيما جاء على سبيل المثال لا الحصر في هذه الأغنيات يلمح روح صلاح جاهين الشاعر الذي يصور الإحساس تصويرا بسيطا مؤثرا؛ فالكلمات تعكس صورًا يراها القاريء ويشاهدها المستمع في بساطة ويسر، فأغنياته هي جزء من مضمونه الشعري الذي يحمل رشاقة اللفظة ونضارتها وحيويتها. ولقد أكد في كل ما قدم من إبداع شعري، ما جاء في مقال الأستاذ "فتحي غانم" بمجلة آخر ساعة، ٢٨ ديسمبر ١٩٥٥:

"احتفل شاعر مصري كبير بعيد ميلاده الخامس والعشرين منذ ثلاثة أيام هذا الشاعر الصغير السن – ما زال مجهولًا – لم يقرأ له أحد بيتًا واحدًا من الشعر ولكنه نشر أشعاره أخيرًا منذ أيام قليلة ليقرأها المصريون والشرقيون، ولتترجم إلى العالم أجمع.. اسمه صلاح جاهين.. اذكروا هذا الاسم وارقبوه، فأنتم وحدكم القادرون على أن ترفعوه إلى أعلى قمم الفن، وأنتم وحدكم القادرون على أن تهيلوا عليه تراب النسيان والموت.."

ولقد تحققت نبوءة "فتحي غانم" حيث أصبح "صلاح جاهين" واحدًا من أهم شعراء القرن العشرين، ليس في مصر فقط، بل في الوطن

العربي، لما قدمه من تجربة شعرية تحمل قيم الإنسان وهمومه وأحلامه من خلال تأمل فلسفي يدركه القارىء العادي والمثقف.. ولقد قال عنه الكاتب أحمد بهجت، بعد مماته:

"كان صلاح جاهين شمسًا تشع بالفرح رغم أن باطنه كان ليلًا من الأحزان العميقة وكان يواري أحزانه ويخفيها عن الناس، ويصنع منها ابتسامة ساخرة، ويظهر على الناس بوجهه الضاحك كل يوم"

وأيضا قال عنه الموسيقار "محمد عبد الوهاب"

"لم نفقد صلاح جاهين، بل فقدنا بموته عشرين فنانًا، الرسام والشاعر والساخر والزجال والقصاص والممثل والسيناريست، وأيضا المغني، وكل هذا متوج بخلق لا يعرف الحقد. كان صلاح جاهين كاتبًا من الدرجة الأولى للأغنية، وكانت أغانيه تسهل على الملحن أن يضعها في إطار لحن جيد، كانت كلماته عطشى للحن الجميل، تدفع الموسيقي لتقديم أحسن ما عنده"

لقد كان صلاح جاهين طاقة إنسانية تفجرت فنًا وشعرًا، فملأت كل سماء الإنسان في كل زمان ومكان.. وسيظل لأن الفن الصادق والكلمة القوية تبقى ما بقي الإنسان.

الشاعر مأمون الشناوي

ولد الشاعر "مأمون الشناوي" في حي السيَّالة بمدينة الإسكندرية في الأربعاء ٢٨ يناير ١٩١٤، وترجع أصول أسرته إلى محافظة الدقهلية، وكان والده رئيسًا للمحكمة الشرعية، مطَّلعًا ومثقفًا، يمتلك في بيته مكتبة تضم عيون الأدب؛ مما أثر في نشأة أبنائه: مأمون وكامل، وقد أصبحا اسمين مضيئين في حياتنا الثقافية فضلًاعن نبوغ "كامل" ـ الشقيق الأكبر ـ في مجال الصحافة حتى اقترنت باسمه مدرسة صحفية عريقة تخرَّج فيها كبار الصحفيين المصريين، كما برز كشاعر يكتب القصيدة الشعرية العربية بشكليها: التقليدي والتفعيلي، وقد تغنى بمعظم قصائده كبار المطربين والمطربات ومنهم: "محمد عبد الوهاب"، "أم كلثوم"، "نجاة الصغيرة"، "عبد الحليم حافظ"، و"فريد الأطرش". وقد جُمِّعت هذه الباقة الشعرية ـ بعد رحيله ـ في ديوان بعنوان "لا تكذبي" قدمه "مأمون الشناوي".

وقد نبغ مأمون الشناوي في كتابة الأغنية حتى صار رائدًا من روادها المبدعين، وقد كان لتخرجه في كلية الحقوق أثر بالغ في بناء شخصيته الثقافية والمعرفية وصقل موهبته الشعرية.

كما ينتسب إلى كتّاب الأغنية في الزمن الجميل؛ فقد عاصر "أحمد رامي"، و"بيرم التونسي"، وجايل "مرسي جميل عزيز"، "حسين السيد"، "أحمد شفيق كامل"، "عبد الوهاب محمد"، "أحمد السمرة"، و"محمد

علي أحمد"، وشكَّل معهم زمرة مضيئة من المبدعين الصادقين المتنافسين في حب في مجال الأغنية.

وقد لحن له كبار الملحنين ومنهم: "محمد عبد الوهاب"، "بليغ حمدي"، "فريد الأطرش"، "محمود الشريف"، "محمد الموجي"، و"محمد فوزي"... وكان موسيقار الأجيال "محمد عبد الوهاب" يعهد إليه بجمل موسيقية لكي يكتب لها كلمات غنائية، ويُذكر أن التعاون الفني بينهما قد أثمر عن كثير من الأغاني الناجحة منها على سبيل المثال: "إنت وعزولي وزماني"، و"من قد إيه كنا هنا"، "إنسى الدنيا وريح بالك"، و"كل ده كان ليه"، و"من قد إيه كنا هنا"، و"آه منك يا جارحني"، وفي فيلم ممنوع الحب: "ردي عليا"، ومن الأغاني الوطنية: "زوِّد جيش أوطانك"، "نشيد الجهاد"، و"نشيد الوادي"..

كما تعاون معه الفنان "محمد فوزي" في أعمال كثيرة منها: "غني للدنيا"، وأغاني فيلمي: "من أين لك هذا"، و"ابن للإيجار"..

كما شدت السيدة أم كلثوم ـ كوكب الشرق ـ من كلماته، أربع أغنيات ارتبطت بوجدان مستمعيها إلى الآن، وهي: "أنساك"، و"كل ليلة وكل يوم"، و"بعيد عنك حياتى عذاب" لحن بليغ حمدي، و"دارت الأيام" لحن محمد عبد الوهاب..

كما غنت ليلى مراد من كلماته: "سنتين وأنا أحايل فيك"، و"يا أعز من عيني"، و"ليه خلتني أحبك"، و"م القلب للقلب رسول"، ونجاة

الصغيرة أغنية "أوصفوا الحب" وغيرها.. وشادية: "إن فات عليك الهوى"، و"ما تهونش عليا" من ألحان عبد العزيز محمود..

كما كان لعبد الحليم حافظ نصيبٌ وافر من كلماته الغنائية الشهيرة منها: "بعد إيه"، و"خايف مرة أحب" وأغاني فيلم موعد غرام "لو كنت يوم أنساك" و"بيني وبينك إيه"، وأغاني فيلم أيام وليالي، وأغاني فيلم ليالي الحب، ومن الوطنيات: "ثورتنا الوطنية".. كما غنى من كلماته سعد عبد الوهاب أشهر أغنياته: "القلب القاسي"، و"الدنيا ريشة ف هوا".. وكتب كلمات أول أغنية من ألحان الموسيقار عبد العظيم عبد الحق غناء كارم محمود.. وغنت وردة الجزائرية العديد من أغنياته منها: "مستحيل"، وعزيزة جلال "هو الحب لعبة"، وفايزة أحمد ومحرم فؤاد، وأحمد عدوية في أغنيته الشعبية الشهيرة: "بتقول لي سيب طب سيب وأنا أسيب"

ولقد كان لتعاون مأمون الشناوي مع الفنان الموسيقار فريد الأطرش أثر مبدع في عالم الغناء من خلال مشوارهما الفني الطويل الذي جمع بينهما في أعمال كُتب لها النجاح الكبير بكلمات صادقة وألحان شجية وصوت مميز فريد، ومنها "الربيع"، "أول همسة"، "حكاية غرامي"، "حبيب العمر"، "بنادي عليك"، و"سنة وسنتين".

ويتميز الشاعر مأمون الشناوي في كتابته للأغنية بامتلاك القدرة الإبداعية على بناء الأغنية في قوالبها الشكلية المختلفة:الطقطوقة، المونولوج، الديالوج، الأداء الفردي، الدو بيت، الموال، والأغنية الجماعية، ومن خلال مضمون يتنوع بين الوصف والدراما والبوح التراثي

المؤثر الذي يجد فيه المستمع معادلًا موضوعيًا ونفسيًا لإحساسه وتجاربه المعيشة.. وتتميز كلماته بالبساطة وعمق المعنى مما ييسر لأي ملحن أن يطوعها ملحنة لأي صوت في يسرٍ وسهولة..

كما كتب مأمون الشناوي قصة فيلم "المليونير" بطولة إسماعيل ياسين وكاميليا وسعاد مكاوي من إنتاج الفنان أنور وجدي وإخراج حلمي رفلة.

وبجانب ريادته وتفوقه في كتابة الأغنية، سطع نجمه ـ أيضًا ـ كصحفي عمل بجريدة الأخبار، وروزاليوسف، وآخر ساعة، ونص كلمة، وجريدة الجمهورية التي حرر فيها بابًا شهيرًا بعنوان "جرَّاح القلوب"..

وفي الأحد ٢٦ من يونية عام ١٩٩٤ رحل عن عالمنا بالغًا ثمانين عامًا قدم فيها عطاءً فنيًا وإعلاميًا فريدًا مبدعًا أثرى حياتنا، وقد كان امتدادًا لرواد الفن الأصيل ومضيفًا عليهم؛ لذا سطر اسمه بحروف من نور في كتاب الفن الصادق، واستحق تكريم الدولة في أكثر من مناسبة..

رحل "مأمون الشناوي"، وبقيت كلماته في قلوبنا:

بعيد عنك حياتي عذاب   ما تبعدنيش بعيد عنك
ما ليش غير الدموع أحباب   معاها بأعيش بعيد عنك

رحمه الله – عز وجل – رحمة واسعة...

الشاعر الغنائي محمد حمزة

سيظلّ "محمد حمزة" اسمًا مضيئًا في سماء الأغنية المصرية، بعد أن قدّم ما يقرب من ١٢٠٠ أغنية، كان لأغلبها الفضل في شهرة من تغنى بها، فضلًا عن تميزها بالوصول المباشر إلى قلب المتلقي والتأثير فيه، لما لها من سمات إبداعية تحقق وجود فن كتابة الأغنية..

وقد جمع "محمد حمزة" بين الموهبة الشعرية والتجربة الحياتية التي فجَّرت هذه الموهبة فوثقتها في كلمات متنوعة معبرة، وتتمثل هذه التجربة في قصة حب – في مطلع الشباب – جمعت بينه وبين المذيعة المعروفة "فاطمة مختار" انتهت بزواج سعيد حتى رحيلها عن دنيانا في عام ٢٠٠٧، وقد أنجب منها بنتين وولدًا، وقد أكد في مواضع كثيرة فضل زوجته ومحبوبته على تجربته الفنية وغيرتها الشديدة على استمرار نجاحه وتفوقه الفني، ويُذكر أنها قد هددت بترك البيت والانفصال عنه إذا كتب أغنية للمطرب الشعبي "كتكوت الأمير"، ولم يجد سبيلًا سوى الاستجابة لطلبها بالإضافة إلى اختيارها لعناوين بعض الأغنيات مثل "أي دمعة حزن لا".. كما كان لفترة الخطبة بينهما نتاج وافر من الأغنيات الشهيرة، ومنها: "أد العيون السود" غناء وردة الجزائرية، ولحن بليغ حمدي، و"أحلى طريق في دنيتي" غناء فايزة أحمد ولحن محمد سلطان، و"نبتدي منين الحكاية" غناء عبد الحليم حافظ، وتلحين موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب..

وقد بدأ "محمد حمزة" رحلته العملية كصحفي في مجلة روزاليوسف وصباح الخير، وظل يعمل في الصحافة متنقلًا بين جريدة الوفد وجريدة الأهرام الرياضي.

أما بدايته مع الشهرة ككاتب للأغنية كان من خلال أغنية "أؤمر يا قمر أمرك ماشي.. لو حتى عيوني ما تغلاشي" لفايزة أحمد ومن تلحين محمد سلطان عام ١٩٦٣، وقد تعاون قبلها مع فايزة أحمد من خلال أغنية "رشوا الورد مع الياسمين"، وتغنت بها في استقبال أبطال اليمن العائدين.

وقد بدأ تعاونه الفني مع العندليب الأسمر "عبد الحليم حافظ" من خلال أغنية "سواح" لحن بليغ حمدي، وقد جمعت الصداقة بين هذا الثالوث الفني الذي ظل مرتبطًا لا يفترق، وقد قدموا أعمالًا غنائية كثيرة منها: "زى الهوا"، "موعود" "حاول تفتكرني"، "مدَّاح القمر"، "فدائي"، "جانا الهوا"، "الهوا هوايا"، "أي دمعة حزن لا"، "ماشي ف الطريق"، و"عاش اللى قال" التي قيلت تكريمًا وتقديرا للزعيم الراحل "محمد أنور السادات" بعد انتصار ١٩٧٣

وقد نجح "محمد حمزة" ومعه "بليغ حمدي" في ترجمة مشاعر "عبد الحليم حافظ" في أكثر من أغنية، ومنها كلمات أغنية "موعود" التي جسدت لبداية رحلة العندليب الأسمر مع المرض:

"موعود معايا بالعذاب موعود يا قلبي.. ولا بتهدى ولا بترتاح في يوم يا قلبي.."

ومنها أيضا أغنية "زى الهوا" التي كتبها من واقع تجربة عاطفية عاشها عبد الحليم حافظ مع إحدى بنات العائلات الكبرى في لبنان، وبعد أن قرر الزواج منها فوجيء بدعوة لحضور خطبة هذه الفتاة على ابن عمها فكتب محمد حمزة:

"فضلت مستني بالأماني ومالي البيت بالورد بالحب بالأغاني.. "

وعند سماعها سالت دموع عبد الحليم وقال له: حتى الكوارث تستغلها يا حمزة..

وتم تعاونهما الفني فيما يقرب من ٣٧ أغنية..

ولد "محمد حمزة" في ٢٠يونيه ١٩٤٠ في حي الحلمية بالقاهرة لأسرة ترجع أصولها إلى المنيا بصعيد مصر، انتقلت مع والده – الذي كان يعمل بالسكة الحديد– من المنيا إلى محافظة سوهاج ثم استقرت بالقاهرة.

وقد تدرج في التعليم حتى التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة، ونظرًا لشهرته في كتابة الأغنية انشغل عن استكمال دراسته بها، حتى عاد واستكملها في سن الأربعين.

وقد كتب روائع الغناء لمشاهير المطربين والمطربات ومنهم: فايزة أحمد.. "أؤمر يا قمر"، و"أحلى طريق ف دنيتي"، وغيرهما.. ولشادية: "يا حبيبتي يا مصر" لحن بليغ حمدي، "آخر ليلة، خلاص مسافر، سكر، خدني معاك، قاللي كلام، وغيرها".. ولوردة الجزائرية: "حكايتي مع الزمان"، "خليك هنا بلاش تسافر"، "مالي"، "العيون السود"، "أنده عليك

بالحب تجيني"، "ليلة من الليالي"، وغيرها.. ولمحرم فؤاد: "معرفتش تحبني"، "حبايب"، "مدي إيديكي"، "يا عروسة"، وغيرها.. ولمحمد رشدي: "طاير يا هوا.. طاير عالمينا"، "ع الرملة"، "عيون بهية"، "ميتى أشوفك؟"، "مغرم صبابا".. ومن ألحان محمد غنيم: دلوني ع السبيل، وغيرها.. ولنجاة الصغيرة: "الطير المسافر"، و"في وسط الطريق"، "نسي"... ولمها صبري: "غلاب الهوا".. ولشريفة فاضل: "آه من المكتوب"، و"الليل".. ومن ألحان سيد مكاوي: "واصل".. ولمحمد عبد المطلب، ومن ألحان بليغ حمدي: "حلاوة حلاوة"، و"نقش الحنة"، و"يا بو قلب دهب".. ومن ألحان رياض السنباطي: "من هنا ومش بيكلمنا".. ولأصالة: "سامحتك"، "يا صابرة يانا".. ولعفاف راضي: "هوا يا هوا"، "راح وقالوا راح".. ولعبد اللطيف التلباني: "دوبني يا حب"، من تلحين محمد الموجي.. ولماهر العطار: "قمري أنا" من ألحان إبراهيم رأفت.. ولهاني شاكر: "هو اللي اختار"، وهي الأغنية التي لحنها بليغ حمدي لعبد الحليم حافظ، لكنه رحل قبل أن يغنيها.. كما غنى من كلماته: عماد عبد الحليم: وسميرة سعيد..

وقد اتسمت كلماته بالرقة والعذوبة والتأثير المباشر والإحساس الصادق، ولنتأمل في كلماته، في "حاول تفتكرني":

لو مريت بطريق   مشينا مرة فيه
أو عديت في مكان   كان لينا ذكرى فيه

ابقى افتكرني

حاول تفتكرني

دي ليـــــــالي عشـــــناها   أبـــــدا مـــــش حانســــاها

وأيضا دقة تعبيره عما يريد في إيجاز بليغ:

لحظة واحدة كان يجرى إيه

دقيقة واحدة كان يجرى إيه

لو القدر أخر فراقنا دقيقة واحدة

كان يجرى إيه

كانت تجرى حاجات كتيرة

كان يجرى ويجرى ويجرى

كان قلبي ارتاح من الحيرة

وتتجلى قدرته الإبداعية في فن كتابة الأغنية في رائعته: "يا حبيبتي يا مصر"، وهي أروع ما ردده الشعب المصري تأثرًا وانفعالًا بنصر أبطال القوات المسلحة المصرية بعد نكسة ٦٧ في معركة رأس العش الشهيرة وقد كانت بمثابة الحافز والدافع الذي أعاد الروح إلى وجداننا وإرادتنا وتوالت بعدها انتصارات جيشنا ويقول فيها:

يا بلادي... يا أحلى البلاد يا بلادي

فداكي.. أنا والولاد يا بلادي

يا حبيبتي يا مصر

ما شفش الأمل ف عيون الولاد... وصبايا البلد

ولا شاف العمل.. سهران في البلاد.. والعزم اتولد

ولا شاف الليل.. في أحضان الشجر

ولا سمع مواويل.. في ليالي القمر

أصله ماعداش على مصر

ما شفش الرجال.. السمر الشداد

فوق كل المحن

ولا شاف العناد.. ف عيون الولاد

وتحدي الزمن

ولا شاف إصرار في عيون البشر

بيقول أحرار ولازم ننتصر

أصله ماعداش على مصر

وما أجمل كلماته في فدائي التي لعبت دورًا معنويًا كبيرًا في شحذ الهمم المصرية قبل نصر ٧٣

إن مـت يـا أمـي مـا تبكـيش راح أموت علشان بلدي تعيش

وافرحـي يـا أمـه وهنينـى وفـي يـوم النصـر ابقـي ادعيلـي

وان طـالت يـا مـا السـنين خللـي خـواتي الصـغيرين

يكونوا زيي فدائيين

وبجانـب إبداعـه فـي كتابـة الأغنيـة قـد تنوعـت كتاباتـه الصـحفية والأدبيـة، وقـد أصـدر في بداية السـبعينيات ديوان شعر فصـحى لكنـه لـم يستمر في كتابة شعر الفصحى لأنه قد وجد نفسه في كتابة الأغنية التي أخلص لها حتى رحيله في يوم الأربعاء ١٨ من يونية ٢٠١٠ بمستشفي الشروق عقب مرضه، ودفن بمقابر المقطم بالقاهرة يوم الجمعة ٢٠ يونيه الموافق ذكرى مولده بعد رحلة عطاء ناجحة وممتدة في عالم الأغنية سطرت اسمه بحروف مضيئة كأخر كتاب الأغنية الكبار..

٣٠يونيه ٢٠١٠

الشاعر "حسن فتح الباب" طائر الصباح الجميل

أولاً: سيرته الذاتية ومؤلفاته

كان للدكتور/ حسن فتح الباب حضور جليل في الأوساط الأدبية في مصر وفي البلاد العربية، فهو الشاعر الرائد والناقد الواعي والباحث الثقافي، فضلًا عن كونه أستاذ القانون الدولي، صاحب المؤلفات القانونية العديدة.

ولد "حسن فتح الباب" في حارة المجدلي بحي شبرا بالقاهرة في السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٢٣ م ومن سن الثامنة عاش يتيمًا، وفي المرحلة الجامعية التحق بكليتي الآداب والحقوق، وبعد مرور عام صدر قرار بعدم جواز الالتحاق بأكثر من كلية في وقت واحد، فترك دراسة الآداب، وحصل على ليسانس الحقوق عام ١٩٤٧، وماجستير في العلوم السياسية عام ١٩٦٠، ودرجة الدكتوراه في القانون الدولي عام ١٩٧٦، وقد عمل ضابط شرطة وأحيل إلى المعاش برتبة لواء عام ١٩٧٦، وقد أمضى بعد تقاعده عشر سنوات في الجزائر عمل خلالها أستاذًا بكلية الحقوق بجامعة وهران.

وقد كان لسماته الشخصية أثر طيِّب في حِرْص مَنْ يلتقيه على دوام معرفته به، والتواصل معه، فهو الواثق من خطوته، صاحب المبدأ، هادئ الطبْع، لا يتكلم إلا لحاجةٍ أو ضرورة.

كان لقائي الأول به في عام ١٩٩٥ بالقاهرة بإحدى الأمسيات الشعرية قدَّمني إليه الشاعر الكبير الراحل/ عبد المنعم عواد يوسف، فوجدته مرحبًا ومشجعًا ومبشرًا، مما جعلني أسعى إلى لقائه – دائمًا – وقراءة ما ينشر له من قصائد شعرية أو مقالات أدبية بجانب حرصي على متابعة كتبه في القانون، حيث إنني أحد خريجي كلية حقوق الإسكندرية في عام ١٩٨٣ ومن عشاق القانون، خاصة فرع القانون العام ويندرج تحت لوائه القانون الدولي العام، وهو المجال الذي أصدر فيه عددًا وفيرًا من كتب القانون ومنها:–

المنازعات الدولية ودور الأمم المتحدة في المشكلات المعاصرة

المخدرات سلاح الاستعمار، وهو كتاب يكشف دور المخدرات السلبي في العلاقات الدولية.

ويُذكر أنه حصل على عضو جمعية القانون الدولي العالمية.

وقد بدأ مسيرته الشعرية في الأربعينيات ونشر بعض قصائده في عدد من المجلات والصحف – في مصر وخارجها – وفي عام ١٩٥٧ أصدر باكورة دواوينه الشعرية بعنوان "مِن وحْي بورسعيد" عقب أحداث العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، فجاءت قصائده تعكس آراءه وتقدِّم طموحاته، مما لفت أنظار النقاد إليه ومنهم: د. محمد مندور، د. شكري عياد، ود. رشاد رشدي، وقد بشروا جميعًا بميلاد شاعر مبدع يجمع بين القديم والجديد وتنبأوا له بمستقبل باهر في مجال الإبداع الشعري، قد

تحقق ما بشروا به فقد أصدر شاعرنا الراحل خلال رحلته الإبداعية سبعة عشر ديوانًا شعريًا ومنها بالإضافة إلى "مِن وحْي بورسعيد":-

فارس الأمل ١٩٦٥، مدينة الدخان والدمى ١٩٦٧، عيون منار ١٩٧١، حبنا أقوى مِن الموت ١٩٧٥، أمواجًا ينتشرون ١٩٧٧، معزوفات الحارس السجين ١٩٨٠، رؤيا إلى فلسطين ١٩٨٠، وردة كنتُ في النيل خبَّأتها ١٩٨٥، مواويل النيل المهاجرة ١٩٨٧، أحداق الجياد ١٩٩٢.

وقد أصدرت له الهيئة العامة للكتاب أعماله الشعرية الكاملة في عام ١٩٩٨، ثم أصدر ديوان: الخروج من الجنوب ١٩٩٩، وديوان "وجوه في الميدان" في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، صدر عن سلسلة إبداعات الثورة بالهيئة العامة لقصور الثقافة، وقد ضمَّ ثلاثين قصيدة لوجوه التقى بها في ميدان التحرير أثناء الثورة، وقد قدّم فيها رؤيته حول علاقة المثقف بالسلطة وهو ما أكد رأيه الصادر عنه في حوارات سابقة ونصه "هناك سلطة للشعب، وهي السلطة الباقية، وهي أقوى من كل الحكام.. مصر منذ العصر الفرعوني لم تتغير حدودها حتى اليوم، الشعب المصري لا تتفتت وحدته رغم مرور المحتلين به"

وقد تحدَّث في هذا الديوان – أيضًا – عن الشاعر/ علي محسَّب الذي ترك له رسالة يقول فيها : لقاؤنا هذا الصباح.. هناك في ميدان التحرير فأجابه شاعرنا بقوله:

"يا صاحبي نسيتُ أنني/

شيخ هرم/ وأنت في نضارة الصبا../

فكيف لي أن أتبعكْ../ فلا مني../

لم تمضِ غير ساعةٍ/ حتى وجدتني معه/

كأنني قد عاد لي الشبابْ/ هناك في محطة التحرير/

مع الشباب الثائرين/ وكان لي بشير الانتصار"

وكتب – أيضًا – عن خالد سعيد بقوله "ضحيَّة التعذيبِ حتَّى القتلِ عمدًا

فُجِرِّت شرارةً لثورة الشبابِ

فحانت الساعةُ وانشق القمرْ . .

لكي تُعيدَ أنْتَ شمسنا

تعيدها إلي الوطن"

ومن إصداراته المسرحية: مسرحية شعرية قدَّمت سيرته الذاتية بعنوان "أسمى الوجوه بأسمائها" ومسرحية شعرية بعنوان "محاكمة الزائر الغريب"

وجدير بالذكر والقراءة مؤلفاته الأدبية والنقدية الوفيرة ومنها:

رؤية جديدة في شعرنا القديم، شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والآفاق، شاعر وثورة، تنويعات على لحن السندباد (مِن أدب الرحلات)، حسان بن ثابت – شاعر الرسول –، حسن عبد الله القرشي – شاعر

الجزيرة العربية -، سمات الحداثة في الشِعر العربي المعاصر، المقاومة والبطولة في الشعر العربي، السفارات الثقافية في الدبلوماسية الإسلامية، من غزة بدر إلى ملحمة البوسنة، محمد مفيد الشوباشي.

وقد توّج إبداعهِ المتنوع بجوائز مصرية وعربية منها:

- جائزة المجلس الأعلى للآداب والفنون مع وزارة الثقافة عام ١٩٧٥ عن ديوان مستوحى من ملحمة أكتوبر.

- جائزة مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين في عام ١٩٩٩م عن ديوان "أحداق الجياد"

- جائزة "القدس" مِن الاتحاد العام للكتاب العرب

وقد كان عضوًا باتحاد كتاب مصر وبلجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة وعضوًا شرفيًا باتحاد كتاب الجزائر، بجانب كونه محكمًا أدبيًا للعديد من الجوائز والمسابقات.

ولقد ظل د. حسن فتح الباب عبر سنوات خياته يَحْلمُ بوطن مثالي، وبعالم يحترم الإنسان، ويعمل على رفعته والاعتزاز به، وقد عكست إبداعاته الشعريةً وكتبه الأدبية ومؤلفاته القانونية مبادئه وآراءه في صدْقٍ فني وأمانة علمية.

وفي الإثنين الثامن والعشرين من سبتمبر عام ٢٠١٥ رحل عن عالمنا ابن حارة المجدلي بشبرا بعد أن تدهورت حالته الصحية، فنقلته

ابنته "منار" إلى مستشفي الشرطة بالقاهرة، حيث وافته المنية، وأُعْلن رحيل أحد شعراء الخمسينيات المبدعين وحارس قصيدة التفعيلة، ورجل القانون الصادق، وعزاؤنا ما تركه لنا من تجربة شعرية مبدعة متفردة وعطاء أدبي وعِلمي متميزٍّ.

ثانياً/ السمات الفنية في شِعر"حسن فتح الباب"

يتسم شعر د. حسن فتح الباب بسماتٍ فنية وفيرة أهمها:

– البراعة في صياغة الصورة الشعرية

– استخدام المعادل الموضوعي والارتكاز عليه في بناء القصيدة.

– الحرص على إعلاء شأن الإنسان ورفعته في مضمون شِعْره.

وينصهر كل ذلك في بوتقة أسلوب لغوي جزلٍ متدفِّقٍ جليٍّ

وسندلل على ما جاء بعاليه بتحليل قصيدتين من قصائد الشاعر وهما: "أحداق الجياد" و"لا تسأل غزةَ عن طير البحر"

وهو يستهل قصيدته "أحْداق الجياد" بقوله:

الخريف الجهْم خلف الباب...

والرحلة حانت.. والجياد

وقَفَتْ بين الفصول الأربعة

أبصرْتُ ريح الشتاء

رَكِبتْها.. أجْفلتْ

فَقَدَتْ غُرَّتَها.. أعرافها

مادت إلى الطين..

كل الغصون..

في سراديب الضلوع العارية

فقدتْ كل الدروع

يا جيادي استيقظي"

فالشاعر في مفترق فصوله الأربعة يستدعي جياده، يناديها لكي تستيقظ، حيث الخريف الجهْم خلف الباب، وريح الشتاء فقدت غرَّتها وأعرافها ومادت إلي الطين، وكل الغصون في سراديب الضلوع العارية، وفقدت كل الدروع.

فهذه الصورة الشعرية التي رسمت في استهلال القصيدة وستمتد إلى نهايتها، ارتكزت على معادل موضوعي وهو الجياد – رمز القوة والانتصار والاقتحام – وقد كشف لنا ما تقدم عن إرادة إنسانية مقتحمة غير مستسلمة أو محبطة، فالإنسان يستنجد بجياده ويوقظها ويستقوي بها في مواجهة فصوله الأربعة المنهزمة، وفي خضم واقعه الذي يشرئب العنق

الضامر في وجْه سمائه، ويولد به المستضعفون، والأعين جوفاء والقلبُ خواء، ويظل النطح ينداح.. وتستعلي الحصون، وتدق الساعة الصماء في البرج، وتنصب شآبيب المطر، وتختفي ريح الصبا.

وتأمل قوله في القصيدة ذاتها:

"يشرئب العنق الضامر في وجه السماء

يولد المستضعفون

غير أن الأعين الجوفاء والقلب الخواء

لا ترى النبع ولا الريح الرخاء

ويظل النطح ينداح.. وتستعلي الحصون

وتدق الساعة الصمَّاء في البرج..

.. وتنصب شآبيب المطر

تختفي ريح الصبا"

ثم يتمسك بالنداء على جياده، التي تمثل الملاذ والرجاء بقوله:

"يا جيادي فاتَكِ الركبُ ولكنَّ الفصول

وقفَتْ بين الجباه السود

والليل ارتمى بين الحوافر

وأتى الصيف فكانت شمسه جرحًا..

وكان الناي أحزان مسافر

وعلى الأفق بقايا شهابٍ في الأفول"

وهو يؤكد في المقطع السابق تشظي فصوله الأربعة ووقوفها بين الجياد السود، وتتجلى الصورة الشعرية الممتدة في القصيدة لتشمل مشهد الليل المرتمي بين الحوافر والصيف الذي أتت شمسه جرحًا ، ثم يرتكز على صوت خارجي كمعادل موضوعي آخر، يمثله الناي الذي يعادل موسيقى ذاته الداخلية، التي تنكشف في أنات الناي، وتتفجر في شهابٍ على الأفق في الأفول وهو معادل لصورة الإنسان في القصيدة وهو ما أكده الشاعر بقوله واصفًا الشهاب:

"ليس يحيا أو يموت"

فهي لحظة وقوفٍ بين الحياة والموت، لذا كان الملجأ إلى الوسيلة أو طوق النجاة المتجسد في الجياد لاقتحام الضعف وفتح سبيل القوة ولعبور هزيمة النفْس والدخول إلى انتصار الإرادة، وهو ما يحاول الشاعر تحقيقه، ولكنَّه لا يملك الوصول لمآربه، ولا يقدر على احتمالات عوائقها وهو ما أكده – أيضًا – بقوله:

"آه يا طير الشفق

حائمًا من حول أحداق جيادي

جئت من قبل مواعيدك في الفجر

فغشَّاك الغسق

أترى يؤذن مسراك على الليل العقيم

واسوداد الغُرَرِ البيض بقيعان الهشيم

برجوع الموجِة البيضاء في نهر الجليد

وأزيز النار في الريح وأكواخ العبيد؟"

وهنا تقف مآرب الشاعر في مواجهة عوائقه، وتنشأ المعطيات الشعرية في سطور القصيدة، ويتساءل أترى يؤذن مسراك على الليل العقيم.. إلى اخر المقطع السابق، ثم يعود للنداء على الجياد مع التنبيه والتحذير وتأمل قوله:

"يا جيادي.. لا تراعي"

وقد جاء بعد نداءين سابقين في القصيدة وهما:

"يا جيادي استيقظي" وهو نداء وإيقاظ

ثم "يا جيادي فاتكِ الركبُ ولكن الفصول..

وقفت بين الحياه السود.."

وهو نداء ووقوف على أبعاد الموقف، ومدى ما وصلت إليه الحالة، ثم يأتي النداء قبل الأخير في القصيدة وهو:

"يا جيادي.. لا تراعي"

وهو نداء يتبعه نهي وتنبيه مما ستصل إليه عواقب الأمور وما ستؤول إليه الأحداث، هذا النداء يتوحد فيه الشاعر/ الذات/ الإنسان مع معادلة الموضوع الجياد/ القوة/ الإصرار، وهو توحد في مواجهة النيران التي قد تخمد في المذبح والمغنيين الذين يبيتون جياعًا في العراء والريح التي ترعى في الرماد وهو ما تجسد في قوله :

"يا جيادي لا تراعي

تخمد النيران في المذبح يومًا

والمغنون يبيتون جياعًا في العراء

ثمَّ لا ينفض إلا الأجراء

غير أن الريح ترعى في الرماد"

ثم ينفجر الموقف الشعري، ويتأزم الموقف حينما يكون المستحيل حينما تلْوي الجياد أعناقَ الفصول وتأمل قوله :

"ويكون المستحيل

حينما تلوين أعناق الفصول

لا تموتين .. ولكن تُرْجمين

لتعودي من جديد

ها هي الأبواب ترتد..

.. ويشتد اصطخاب الأمكنة

واستباق الأزمنة

يا جيادي.. فامتطي الريح الأخيرة"

وتختتم القصيدة بنداءٍ أخير على الجياد المعادل الموضوع أو المرتكز الأساسي لمحطات القصيدة أو تقلبات النفس الإنسانية المأزومة في مواجهة الصراع المعاصر والمعيش ويتمثل النداء في قوله:

"يا جيادي.. فامتطي الريح الأخيرة"

وهو نداء بعده أمر، بأن تمتطي الريحَ الأخيرة، أو الفرصة المتاحة أو طوق النجاة، وهو نداء يأتي بعد أن صور الشاعر في صورة جزئية المشهد الذي يعيشه بقوله:

ها هي الأبواب ترتد

ويشتد اصطخاب الأمكنة

واستباق الأزمنة"

فالمكان والزمان والأبواب كلهم في صراع ومصيرهم مضطرب، وهو ما يعكس حالة الشاعر النفسية ورؤيته للواقع أو لخطوته على طريق الحياة، لذا لم يَجدْ بُدًا من النداء الأخير على الجياد، وهي الممكن الوحيد له،

لكي يخرج من أزمته، أو لكي يفرَّ خارج هذا الزمان المستبق والمكان المصطخب والأبواب المرتدة، بيد أن هذا الممكن المتمثل في الجياد ليس له من سبيل سوى امتطاء الريح الأخيرة.

وبعد أن عرضنا لقصيدة "أحداق الجياد"، نجد أن السمات الفنية الوفيرة فيها توجز في: القدرة على رسم صورة شعرية تمتد في القصيدة، وهي صورة أساسية، تشكل أبعاد رؤية الشاعر ومراده، وتؤكد لدينا – أيضًا – مهارة الشاعر على اختيار المعادل الموضوع وتحديده في سطور شعرية، تمثل محطات إيقاظ ووقفات فنية في سياق القصيدة، وقد برز من مضمونها الإنسان المثابر العنيد المقتحم المتجدِّد الإرادة والعزيمة.

وقد اختمر كل ذلك في وعاء لغوي، جاءت مفرداته محددة الدلالة واضحة المعنى، استطاع الشاعر أن يصوغها صياغة شعرية، أعطتها مع بُعْدِها اللغوي الجليِّ بعدًا فنيًا شعريًا، مما يجعلنا أمام لغة متدفقة مبهرة.

وفي قصيدته "لا تسألْ غزةَ عن طير البحر" يتفاعل الشاعر مع أطفال فلسطين أصحاب ثورة الحجارة، وينفعل لهم، ويستبشر بهم، فيستهل قصيدته بقوله:

"حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ

ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال"

ولنا أن نتأمل الصورة الشعرية في بدء قصيدته، وهي تقدم لنا شكل التكوين لصرح أي بناءٍ كبير ويشيَّد بأيدٍ، وتأتي المفارقة في قول الشاعر: إنها أيدي الأطفال.

فالمشهد يتعامل مع البصر ويتجسد في الأذهان مخاطبًا الوعي، فالصرح أصبح قائمًا وبأيدي مَنْ لم نتوقع قيامهم بهذا، لعدم قدرتهم السنيِّة ولعد استطاعتهم الجسمانية، ولكنها المعجزة تحققت، فأشاد بها الشاعر، وصوّر الثورة التي كانت بحجر يلقيه الأطفال الفلسطينيين في مواجهة العدو الدائم لنا إسرائيل المغتصبة لأراضينا الفلسطينية.

والحجر في استهلال القصيدة، يتخيله المتلقي ببعدين: الأول أنه الحجر الذي يُلقى بأيدي أطفال فلسطين والثاني أنه الحجر نواة البناء الكبير أو الصرح الفلسطيني

ونخلص مما تقدم أن الشاعر قدَّم صورة شعرية كمشهد أول في القصيدة وضمنها معادله الموضوعي أو الإنساني الذي يتمثل في أيدي الأطفال، وقد ارتكز في القصيدة على استعادة جملته الاستهلالية "حجر من بعد حجر" خمس مرات، للتأكيد على عُمْق الحدث وأثره العظيم في نفسه وقد احتفظ بتكرار معادله الموضوعي أو الإنساني "أيدي الأطفال" في السطر التالي لجملته "حجر من بعد حجر"، ولكنْ بتصرف في الحَدَثِ السابق لها، مع احتفاظه في مرةٍ واحدةٍ بتكرار هذا المعادل دون أن يسبقه بـ "حجر من بعد حجر" ولتكرار صورته الشعرية و – أيضًا – معادله الموضوعي أو الإنساني مبررات فنية نسردها فيما يلي:

تأمل قوله في استهلال القصيدة:

"حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ

ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال"

وهو مقطع شعري قدَّم مشهدًا كاملًا للحدث، كما أزاح الستار عن رأي الشاعر وانبهاره، وشد انتباه المتلقي إلى ضرورة أن يستمر في التلقي؛ لذا كان الاستهلال السابق مقطعًا كاملًا، لجأ بعده الشاعر إلى بداية مقطع جديد، التفت فيه إلى أعماق المضمون، فبدأ بلا الناهية، وطالب أصحاب القضية الفلسطينية ألا يسألوا "غزة" – رمز فلسطين – عن طير البحر ومحار لم يتقاذفه الأحباب حتى تطل ست الحسن فلسطين منتصرة ويد ضمَّت في يدْ وتأمل ما جاء بالقصيدة:

"لا تسأل غزة عن طير البحر

ومحار لم يتقاذفه الأحباب

صبيان وبنات أتراب

ورمال قصورٍ ظمأى

لأناملهم.. تسقي.. تبني

حتى ترتفع الأمواج

وتطل عليهم في شفق الورْد

"ست الحسن" فلسطين

أحلام.. أبراجْ

فالمشهد الاستهلالي "حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ/ ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال" جاء كعنوان ومقدمة للمقاطع التالية والتي فنَّد فيها الشاعر الأحداث والآراء والمواقف التي تخص القضية الفلسطينية، ولذا لجأ إلى تكرار أمره: لا تسأل في القصيدة بقوله:

"لا تسأل "غزة" عن طير البحر"

، "لا تسأل أين نوارس "غزة"

، "لا تسأل أين فوارس أدنى عهداً بالمهد؟

، "لا تسأل أين عصافير الساحةِ في نابلِسْ؟

وهو لا يقصد من تكرار هذا النهي إلَّا أن نغلق البابَ على أي انقسام أو اختلاف، ولا ننظر أو نلتفت إلا للنصر المحقق على أيدي أطفالنا بحجارة تلقى في مواجهة الأعداء فأصبحت أشهر الأسلحة وخطوة في طريق النصر ونواة لبناء الصرح الفلسطيني المُنْتَصِر.

أما تكرار المقطع (حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ/ ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال) للمرة الثانية، فقد جاء بين مقطعين: المقطع الأول ينبه إلى ضرورة مواصلة الإصرار على النصر بقوله:

"إصرار.. إصرار

رجْم الأفعى حتى تخضرَّ الأشجار

تُغْمض عيناً أُمْ

وتعود ديار"

وهو ما يمثل الدافع لاستمرار الغليل واحتدام النار في الصدور، ثم يأتي المقطع التالي لتكرار المقطع الاستهلالي ليحمل قيمة الاستشهاد فداءً للوطن، ولكن الشهداء هنا هم ورْد فلسطين أطفالها الأبرياء أصحاب النصر وأرباب ثورة الحجارة.. وتأمل ما جاء في القصيدة:

"نعشٌ من ورْد

وأناشيد

زخاتُ رصاصٍ حول المهد

وزغاريدْ

حجرٌ.. بذرة

حفنة دمعٍ.. شجرة

وتطل على الأفق تلالْ

حجر.. غيمة

ويضيُ هلال

علم بدماء الأبطال

بيت للشعب بأيدي الأطفال"

وهنا يختتم المقطع بالمعادل الموضوعي المتمثل في أيدي الأطفال دون أن تسبق بحجر من بعد حجر لأن البيت المقصود بيت الشعب الفلسطيني، وهو بيت يستعاد لكونه موجودًا من قبل أما الصرح في قوله: "ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال" فهو صرح النصر الذي نتوق إليه ونسعى له ونستشهد من أجله لذا فقد عاد إلى تكراره في ختام المقطع الثالث للتأكيد على تحقق الحُلْم أو الأمنية، وتأمل قوله في القصيدة:

"لا تسأل: أين عصافير الساحةِ في (نابلِسْ)؟

واسأل موتاهم.. جَرْحاهم عن سر النصرْ

واسمع موال فلسطينْ

يتغناه الزغَب الأخضرْ

حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ

ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال"

ثم يعود للارتكاز على مقطعه الذي استهل به القصيدة للمرة الرابعة بعد أن تأكد من النصر والمضي في البناء واسترداد فلسطين وتأمل قوله:

"وغدًا لا سعْي

إلا من يشدو في "نابلِسْ"

مَنْ يسقي.. يبني في "غزَّة"

رملًا.. قصرًا

حجرًا.. حجرًا

أمواجًا.. أبراجًا

من يفتح دفتره للدرس الأوَّل

يتهجى: نون صادٌ راء

لفلسطينْ

في العام الأول بعد النصر يجيئونْ

في العام العاشر في العام العشرين

في العام الألف"

لذا كانت استعادة " حَجَرٌ مِن بعدِ حجرْ / ويقوم الصرحُ بأيدي الأطفال" صرخة تأكيدة لفرحة بالنصر والاحتفال به.

ثم يكرر هذا المقطع في ختام القصيدة، ولكن بعد أن قدَّم مشهدًا لأصحاب الثورة المنتصرة وهم الأطفال في مراحل عمرهم الصغيرة بقوله:

"مازلنا نأتي نرفع رايات النصرْ

أكبرنا في العاشرة من العُمْرْ

أصغرنا في العاشرة من العُمْرْ

صبيانٌ وبناتْ

أحباب.. أترابْ

أحياء شهداء"

ثم ينتهي هذا المقطع بتكرار مقطع الاستهلال بقوله:

حجر من بعد حجر

قام الصرح بأيدي الأطفال الأبطال

وارتفع العلم الخفَّاقْ

لفلسطينْ"

وهنا نجد الشاعر قد بدَّل الفعل فأصبح "قام الصرح" بدلًا من "ويقوم الصرح" للتأكيد على تحقق النصر ونجاح الثورة وأضاف بعد أيدي الأطفال وصف الأبطال للاعتزاز بمعجزتهم التي أذهلت العالم وأربكت الأعداء وحققت التفوق والانتصار عليهم.

مما تقدم تتأكد السمات الفنية لتجربة "حسن فتح الباب" الشعرية والموجزة في

- براعته في رسم الصورة الشعرية الممتدة في القصيدة.
- الارتكاز على المعادل الموضوعي بما يزيد في أثر التلقي.

- الحرص على تقديم الإنسان قويَّ الإرادة والعزيمة.

كل ذلك في بناءٍ شعري تضيؤه لغة حية جزلة موحية.

ما قدمناه بعضًا من كلٍ في تجربة الشاعر المبدع د. حسن فتح الباب، وبعد فإن الذي يحتاج منا إلى قراءة واعية لأعماله في الشعر والنقد الأدبي، وأيضا القانون، الذي سيظل في سجل مبدعينا "طائر الصباح الجميلْ".[1]

جابر بسيونى

٨ / ١٠ / ٢٠١٥

[1] "طائر الصباح" عنوان إحدى قصائد الشاعر.

الشاعر/ صبري أبو علم.. المُحبُّ الشامخ

أولا: صبري أبو علم السيرة والمسيرة:

سيظل اسم "صبري أبو علم" مضيئًا في سماء الشعر المصري، نظرًا لما اتسمت تجربته الشعرية من مغايرة في الشكل والمضمون، جعلت منه شاعرًا مبدعًا ضمن شعراء الستينات في القرن الماضى. وسيظل اسمه نبراسًا في شارع الثقافة السكندرية ، حيث تحمل – دون كلل أو ملل – عبء تطوير حركة الثقافة طوال خمسين عامًا، ظل خلالها محركًا لعجلة الواقع الأدبي ومنشطًا لكافة الابداعات الفكرية ومتابعًا جيدًا لكل الأحداث الثقافية.

ولد "صبري أبو علم" في ٣ ديسمبر ١٩٤٢ بطهطا – محافظة سوهاج لأب طهطاوي يعمل بالتربية والتعليم ويجيد كتابة الشعر ويدعى "عبد الله أحمد بدوى" وأم تدعى "نفيسة" بنت الشيخ محمد يحيى من مليج – محافظة المنوفية.

وقد أسماه والده "صبري أبو علم" حبًا لوزير الحقانية وسكرتير عام حزب الوفد "صبري أبو علم باشا" ابن مدينة منوف بالمنوفية والمحامي الشهيد والسائر ضد الإنجليز المتوفي يوم ٣٠ مارس ١٩٤١م .

وهو الوحيد لوالديه اللذين انتظراه ١١ عامًا، وقد حملت فيه أمه بعد أن ذهبت مع صديقاتها اول عام ١٩٤٢ إلى عامود السواري بالإسكندرية

وقطعن تذاكر لزيارة السيرابيوم ثم نزلت النساء إلى الدهاليز تحت الأرضية ومعهم الخفير يحمل فانوس الهواء لإنارة الممرات فلم تكن أنوار الكهرباء أو الغاز أو الإضاءة قد وصلت إلى هذا الموقع الأثري وحسب الاتفاق بين زعيمة النساء والخفير أن يطفيء المصباح لحظة ضجيج عجلات الترام الفائت فوقهم وفجاة ينطفي المصباح ويعلو صراخ النسوة من الفزع والخوف فيرتجف الجسد وتنخلع الروح وهنا تحدث المشاهرة.

وقد عادت أمه إلى زوجها المنتظر في طهطا وقد حملت فيه في شهر مارس ووضعته في ٣ ديسمبر ١٩٤٢ في برد الصعيد القارس وعز الحرب الدائرة بين إيطاليا وألمانيا ضد إنجلترا وقواتها المحتلة لمصر.

وقد أراد له أبوه أن يكون طفلًا مفوّهًا وخطيبًا بارعًا، فأحضر له وهو في المرحلة الإعدادية كتاب "فن الخطابة " لنيقولا فياض فكان له أثر طيب في تغلبه على التهتهة والتلعثم في نطق الكلمات.

وكان "صبري أبوعلم " يقضي شهرين من الأجازة السنوية في الإسكندرية وشهرًا في المنوفية حيث عائلة والدته، وذلك طوال فترة صباه حتى وفاة والده في ٧من فبراير ١٩٦٢

وبعد هذا التاريخ قرر أن يرحل إلى الإسكندرية ويستقر بها وقد تحقق له ذلك فاقترن بنت خاله "عواطف" التى أنجب منها ولدين: أحمد وإسلام، وقد ظل مكتبه بحي محرم بك مزارًا لكل أدباء مصر ومثقفيها حتى رحيله في الأول من ديسمبر ٢٠١٥ ودفنه بمقابر خورشيد بالإسكندرية.

وروى لنا "صبري أبو علم" أنه حين انتقل إلى الإسكندرية قرر الالتحاق بالقوات البحرية متطوعًا، ثم مواصلة التعليم فحصل على ليسانس الأداب قسم الأنثربولوجيا جامعة الإسكندرية في عام ١٩٧٩.

وقد تجمعت في داخله كل الثقافات المصرية فهضمها وأعاد إنتاجها:

- ثقافة الصعيد في طهطا بلدة أبيه وكل محافظة سوهاج.
- ثقافة الريف البحري في قرية مليج بالمنوفية بلدة أمه.
- ثقافة المدينة المنفتحة الإسكندرية مقام أخواله وخالاته.
- ثقافة الواحات في مدن الخارجة وأسمنت ومدينة موط.

كما كان قارئاً نهمًا، شغوفًا بالاطلاع والمعرفة، ومبدعًا للشعر والآداب والخطابة، معتزًا في أحاديثه لنا برئاسته لاتحاد طلاب مدرسة رفاعة الطهطاوى الثانوية بطهطا ووكيل اتحاد طلاب محافظة سوهاج وعضوية اتحاد طلاب مصر. ومشاركته في عدد من معسكرات إعداد القادة (قادة الطلاب في الخدمة العامة) و– أيضًا – عمله بحارًا على المدمرة (دمياط) لمدة عشر سنوات (١٩٦٥ – ١٩٧٤) خاض معها معاركها المشرفة منذ يونيو ٦٧ وحتى أكتوبر١٩٧٣ وتردده على قصر ثقافة الحرية ضمن أول جماعة أدباء شبان ترعرعوا فيه عام ١٩٦٢

وقد صدرت له عدة أعمال أدبية:

- قصائد حب (ديوان شعر) .

- باقات من الوفاء (ديوان شعر مع آخرين).

- "نزار" دراسة عن نزار قباني.

- تمثيليات درامية بإذاعة البرنامج العام .

- عبد الصبور منير.. حياته وشعره.

كما شارك في تحرير عدد من المجلات الأدبية منها:

- أقلام الصحوة (مع صديقه: محمود عوض عبد العال، والفنان/ عصمت داوستاشي).

- راقودة

ولعل أبرز مشاركاته الثقافية إبان ولايته لمنصب أمين عام هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية برئاسة أ.د/ محمد زكريا عناني منذ عام ١٩٨٩ وحتى بداية الألفية الثالثة.

وقد شهدت الهيئة في عهده إنجازات ثقافية وفكرية غير مسبوقة قدم فيها أصواتًا مبدعة جديدةً، ولقاءات أدبية متميزة وأحداثًا إبداعية جعلت من الإسكندرية منارة ثقافية متفردة، فقد تعاون مع كل الأماكن الثقافية وتضافرت جهوده مع كل المبدعين والمثقفين و- أيضًا- الأماكن الثقافية المهمة منها: لاتيليه الإسكندرية.

وفي مساء الخميس ٢ إبريل عام ٢٠٠٧ كرمه قصر التذوق بسيدى جابر برئاسة حسناء شتا تقديرًا لرحلة عطائه الثقافية ضمن رحلة المبدعين بحضور أصدقائه د/ محمد رفيق خليل، د/محمود رشدي، الفنان التشكيلي الكبير/ عصمت داوستاشي، والأديب المبدع/ أحمد ماضي، والفنان/ ماهر جرجس، ود/ محمد زكريا عناني، ولفيف من مبدعي الإسكندرية ومبدعاتها. كما كرمه اتحاد كتاب مصر – لجنة الفروع – بإهدائه درع الاتحاد لأدباء مصر المتميز في ١٠ يونيو عام ٢٠١٢ بحضور ورئاسة الكاتب الأستاذ/ محمد سلماوي – رئيس اتحاد كتاب مصر.

ومما تتسم به شخصية "صبري أبوعلم" الثقافية أنه كان حكاءً ماهرًا وراويًا مبهرًا ومؤرخًا شفاهيًا للأماكن والشخصيات، فصار حبه للشعراء وحبه للمثقفين على حقيقة معلومة أو معرفة واقعة أدبية أو ثقافية. وقد ظل حتى ليلة يوم رحيله معطاءً يحمل مشعل التنوير ويسعى بين أحبائه بالحب والمعرفة وتحقيق قيم الثقافة وإعلاء راية الشعر؛ لذا حرصت كل الرموز المبدعة في الإسكندرية على حضور جنازته وحمله إلى مثواه الأخير، وقد عزموا جميعًا على ضرورة تكريمه بشكل يليق بعطائه الوافر المخلص. رحمه الله – تعالى– رحمةً واسعة وأسكنه فسيح جناته.

الذات الشامخة في قصائد حب

صبري أبو علم

وما لم ينشرْ من شعْره

"قصائد حب" ديوان للشاعر صبري أبو علم، صدر عن قسم الأنثروبولوجيا –كلية الآداب – جامعة الإسكندرية في عام ١٩٧٩ بتقديم للعالم الجليل الأستاذ أحمد أبو زيد – رئيس القسم – وقتها، ومنه:

"ولقد رأى القسم أن يتبنى فكرة إصدارهذا المجلد الذي يكشف عن جانب من نشاط القسم – إلى جانب أنشطته العلمية المختلفة –كما يكشف عن إحدى المواهب التي تسهم في دراسة تلك التجربة الإنسانية والتعبير عنها بأسلوبه الخاص الذي يختلف عن الأسلوب العلمي للبحث، ولكنه لا يتعارض بالضرورة معه، وإنما على العكس من ذلك يتكامل معه ويكمله، ومن منطلق الاعتزاز بصبري أبو علم كشاعر رقيق وعميق ينتسب إلى أسرة قسم دراسة الإنسان المصري في الحياة، أقدم هذا الكتاب

وحسبنا أن نقف أمام هذه الكلمات لكي نعرف مكانة الشاعر صبري أبو علم ومدى الاعتراف بموهبته الشعرية، وقدر تجربته الإبداعية وقت صدور الديوان، بل وحسبنا – أيضًا – أن نكشف عن العلاقة الحميمة بين

الجامعة وطلابها، وبمعنى أقرب بين الأستاذ كرمز وقدوة يحتذى بها، وتلميذه كموهبة مشرقة مبشرة.

وقد وجد ذلك صدىً طيبًا في نفس صبري أبو علم؛ فخصص صفحة لتقديم الشكر والتقدير لهيئة التدريس بقسم الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية حيث تحمست لنشر ديوانه، كما قدم الشكر والامتنان للعالم الجليل الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد – رئيس القسم والمشرف على تحرير مجلة عالم الفكر، و – أيضًا – تقدم بالشكر إلى الدكتور محمد عبده محجوب أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية المساعد الذى أشرف بنفسه على عملية ولادة الديوان المطبوع.

وقد آثرت أن أبرز هذه الملامح النبيلة في هذا القسم العلمي في عام ١٩٧٩، وهي تكشف عن سمو الجامعة ورفعة أعلامها وطاعة طلابها لهم، وهي سمات نَعوُزُها الآن – في عام ٢٠١٦ في الأغلب الأعم من مواقعنا العلمية.

و"قصائد حب" ديوان وحيد للشاعر صبري أبو علم، يضم ثماني وعشرين قصيدة باللغة العربية الفصحى –كتبت في الفترة من ١٩٦٠ حتى ١٩٧٣ – أي منذ بداية بزوغ موهبته الشعرية في الثامنة عشر من عمره، فهو المولود في ٣ ديسمبر ١٩٤٢، وحتى نهاية عام ١٩٧٣ الذي تحقق فيه نصر أكتوبر العظيم لمصر والعرب على العدو الصهيوني "إسرائيل".

وباستعراض قصائد الديوان نجدها تنطلق من ذات معتزة بخطاها ورأيها ومبادئها، تعظم من قيمة الوطن وتعُلي من شأن القائد والزعيم المتمثل في شخص جمال عبد الناصر، وأيضًا، تتبنى قيم الوفاء للأصدقاء، وتؤكد على رفض كل أمان زائف أو كيان أجوف، أو صبح سراب..

وتأمل قوله في فصيدته "ملاحظة على بعض أحوال الزمان" بالديوان صفحة ٣٣:

وسئمْتُ أنْ أَعْدُو على الطُرقات يسبقني الدليلْ

أسْترجعُ الخُطْواتِ حيث تدكُّ أسفلتَ الطريقْ

فأصيرُ في نفسِ الزمان

وأكونُ في نفسِ المكان

لا أعرفُ الأيامَ إنْ ولَّتْ .. وإنْ جاءتْ

وإن سارت حزينةْ.. نحو تمثال المدينةْ

فمتى تكبِّل خطواتي سطورَ التواريخِ القديمةْ؟

ويلفُّني ليلٌ ضياءٌ، فَرَّ مِن ظُلْم الظلامْ

فتجوسُ خطواتُ الدليلِ على الطَريق بلا متابع

وأحسُّ نبضاتِ الحياةْ

متحررًا من دكِّ خطَواتٍ رتيبةْ

فأنا سئمتُ العدْوَ خلفَ دلائلِ الصبْح السراب

وكرهت شارات العبور إلي الأمان

فلئن مَشَيْتُ.. على هدى

قفْ هاهنا.. سرْ مِن هنا

قفْ هاهنا.. سرْ مِن هنا

حتى سئمْتُ العدْو يسبقني الدليلُ الأجوفْ

وكرهْت شاراتِ العبورِ إلى الأمان الزائف

وقد ذكر في فهرس تواريخ كتابه قصائد الديوان، أن القصيدة السالفة كتبت في ١٩ فبراير ١٩٧٢، أي قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وإبان أصعب فترة انتظار عاشها الشعب المصري في مواجهة عدوه الإسرائيلي والمحتل لأرضه، وأثناء حرب استنزاف بدأت منذ تحقق الاحتلال في ٥ يونيه ١٩٦٧، والتي شارك فيها الشاعر صبري أبو علم الذي عمل بحارًا في الأسطول الحربي المصري عشر سنوات، شهدت حروب الاستنزاف والتحرير، وهو أحد طاقم البحارة على المدمرة دمياط في الفترة من ٦٥ – ١٩٧٤ – والقصيدة تعكس لنا السمات الشخصية للشاعر وأبرزها الاعتزاز بذاته وعدم إيمانه بغير الواقع. فنجد في صياغته لها قد تبنى نبرة خطابية تنم عن قوة الإرادة ومدى غضبه مما آل إليه حالنا في مواجهة

العدو، وهذا الصدق في التعبير عن رأيه وموقفه هو سمة أساسية في شخصية صبري أبو علم كإنسان، يتعامل دون مجاملة أو رياء، بل كانت صراحته الواضحة هي ديدنهُ وهي السبب وراء خصومة الكثير معه، ولكنه أبى إلا أن يكون صادقًا صريحًا حتى يوم رحيله عن دنيانا في الأول من ديسمبر ٢٠١٥.

ومن بؤرة الذات الشامخة انبثقت قصائد ديوان "قصائد حب" والتي بشرت بميلاد شاعر مبدع من شعراء قصيدة التفعلية المتميزين، حيث كانت الصدارة للقصيدة التقليدية البيتية – وقت صدوره في عام ١٩٧٩ – وقد استخدم الشاعر التفعيلة كوحدة وزن في عشرين من قصائد الديوان البالغة ثماني وعشرين قصيدة، بينما استخدم البحر الشعري الخليلي في ثماني قصائد برهنت لنا على انطلاقه من تمكن عروضي ومعرفة جيدة بالبحور الخليلية وأكد سعيه إلى خوض الجديد من أشكال الشعر التي أجاد فيها وأبدع – وللذات في الديوان أوجه عدة:

الذات/الإنسان

الذات/الوطن

الذات/الرمز (القائد/الصديق/المحبوبة)

وكلها ذوات تنطلق من شموخ وإباء ورفض لكل ضعف أو استسلام – فتأمل قول الشاعر للتدليل على الذات/الإنسان أو المبدأ والقوة من قصيدته بعنوان "قيثارتي" صفحة ١١٥، وقد كتبها في ١٠ ديسمبر

١٩٦٠. أي من أولى قصائده وقد تأثر فيها بتجربة الشاعر التونسي "أبي القاسم الشابي" التي تتسم بإعلاء مبدأ القوة والتأكيد على الإرادة – ويؤكد قوله:

سأعيش رغم الداء والأعداء   كالنسر فوق القمة الشماء

ويقول صبري أبو علم في "قيثارتي"

لم تحترقْ قيثارتي   يا كارهاً أنشودتي
سأظلُ أعْزفُ مثلما   سأظل أحيا دنيتي
مثلَ الطيورِ على الربا   لله أُنْشِدُ غنوتي
ويصيح من يهوى الجما   ل وتنتشي قيثارتي

وفي تساؤل يقصد منه تأكيد الاعتزاز بالقوة والخطى الواثقة، نراه في قصيدته الطريق بالديوان صفحة ١٧ والمكتوبة في ٣٠ أكتوبر ١٩٦١. ومنها قوله:

لا لستُ أرضى يا رفيقي   في الجهْر ثائرْ
ولسوف أرفع خنجري   لأرى الحياة مع المخاطر
وأخوض أنهار الحياة   وأرتقي جبل القتاد
وأصب في الكأس الدماء   لعلَّها تروي الوهاد

وإن كانت الذات فيما سبق تعكس السمات الإنسانية الأبية الواثقة نجد أن الذات تعادل الوطن في قصائد كثيرة من قصائد الديوان. كما جاء

في قصيدته "سطور من حديث عاشق" بالديوان صفحة ٧ والمكتوبة في ١٤ يوليو ١٩٧٠. ومنها قوله:

يا نوَّارة قلبي المشتاق

لو تهِبينَ فَتَاكِ الأشواقَ

المنثورة بين ثنايا الأوراق

أو فوق ضفاف النهر الخالد

لو تهبينَ غرامًا أرسخَ من قدميك

يمشي إذ تمشين الدهر

يحملني فوق الأعناق

كي أُبْرِزَ للعالمِ قلْبي

في مزرعة الصَّبارْ..

وتلك الأمنية تكشف عن توّحد ذات الشاعر بالوطن، ووحدة الأمنية فيما بينهما، وهو تجسيد لانتماء الفرد للجماعة واعتراف الجماعة بحلم الفرد، وهذا الانصهار وهو مكون لوطنٍ يحياه الشاعر ويؤمن به وبقضاياه وهمومه. وتأمل قوله في القصيدة السالفة:

من يدفع عني شبهة هذا القلب الغارق في بئر المر

من ينزع قلبي من قلب جذور الصبار

من غيري يلقيني في وجه العالم

يشعلني كرةً تستوقد غيطان الأرز

تتدحرج فوق رؤوس الناس

تسكن أخدوداً بين حدود القرن الأول .. والعشرين

من غيري يدفع عمره، كي يفقأ عين الشيطان

يا نوارة قلبي المهجورة من قبل سنين

يا منكرة العشاق المحمومين.

وتنبعث الذات/الوطن من خلال قصائد أخرى بالديوان ومنها قصيدته "أناشيد ما قبل الموت" بالديوان صفحة ١١ والمكتوبة في ٨ فبراير ١٩٧٠ وفيها يرتكز الشاعر على أسطورة إيزيس وأوزوريس والبحث عن حورس كمعادل الحق والعدل وهي أسطورة فرعونية قديمة تعكس ارتباطه بالجذور واستلهامه قيمها ومعارفها وقد صاغها في أناشيد ثلاثة – وقد بدأ النشيد الأول بقوله:

أوزوريس.. يستوقفك الليلة يا حبي

يا أولَ دارٍ أُسْكِنُها عمري

يا قبرًا... دربي

استوقفك الليلة..

ثم تسيرين إلى العشاق المنتظرين

رغم تهاويل الصمت الصارخ يا إيزيس أعيش

أحياكِ بذور الحناء على كف العرسان

أحياكِ بطمي النيل الظامئ للغرس

أحياكِ بليل الغرباء

وأظل إلي الأبد أعيش

رغم المحدودب ست

تتطلع بيديه الطعنة لعيوني

ثم يستهل النشيد الثاني في القصيدة ذاتها بقوله:

أذكر يا إيزيس.. وقد عشنا في القلب الواحد

ووهبنا أعيننا للرب الواهب رع

قربانًا كي نبصر

إلى قوله:

كنا يا إيزيس نعيش

يثغو في قلبينا حوريس

لم ننجب – رغم عناء الحب – سواه

لكن الأيام يا أوزوريس تمر، وفؤادك يرتطم بقلبي

يتهددني في الغفوة ست

فأغوص ترابًا في وادي مصر

ويبدأ النشيد الثالث في القصيدة نفسها بقوله:

إن سقطت أغصاني تحت سنابك عمك ست

وعدوت بعيدًا عن مصر

صاحب أمك يا حوريس

لا تتركها للأنذال يعيشون ببصماتي الأولى

ولتمنحْ عَيْنَكَ للرب كما كنا

ولتحْتَضِن الأيامَ الزهراءَ بقلْبِكَ مثلي

وهذه القصيدة في بنائها الفني تشكل طفرة متميزة في تجربة الشاعر، بما تحقق فيها من توازن نفسي وفني، وقدرة على إحكام التعبير الشعري الدال. وهو ما تأكد – أيضًا – في قصيدته "صلوات في هيكل الحب" بالديوان صفحة ٦٥ والمكتوبة في ٢ مارس ١٩٧٢ والمهداة للشاعر عصمت شوقي في منفاه الاختياري بإيطاليا. وفيها يقول:

وعرفتك إذ كنا طفلين بطمي النيل نصوغ العالم بيتًا أو طفلًا آخر

وعرفتكِ في لحظات غياب الشمس. ضياء

في لحظة أن جف الحلق.. سلافة ماء

في لحظة موتي.. باب الجنة

فأنا يا مصر صبيًا وشبابًا وطفوله

دسَّت في طمي النيل يداي

واندسَّت في طمي النيل يداها

وغرسنا بذرات الخصب.

ورسمنا فوق جباه الصبية والخلان.. زهرات اللوتس

وعشقنا.. حتى الأرض وقد ختمتها بالعشق خطانا

وبقينا يا مصر المعبد والكهان

أوزوريس يعود على كَفَّي إيزيس أبقى مما كان

وللذات الدالة على الرمز المتحقق في القائد أو الصديق أو المحبوبة وجود صريح في الديوان، وهو ما يؤكد ارتباط الشاعر بمفردات واقعة وحقائق حياته، وإيمانه الواضح بقضاياهم ولنتأمل قوله في قصيدته أنشودتان لعبد الناصر (بالديوان صفحة ٦٩، والمكتوبة في ٣ أكتوبر ١٩٧٠. وهي تعكس علاقة ذاته بالقائد الذي يؤمن بقضيته ويسير على خطاه، ومنها قوله:

يا عبد الناصر

قد عشتَّ تصيخ لآنات

لا تثمر في أنفسنا غير الصبر

لكنك تدرك ما دون الهمس

وتحس أنين الموجوعين

في خيمات الأردن

فتضيئ يديك بزيتون فلسطين

وتقدم من دمك الطاهر

مرضعةً للأطفال المنتظرين

فوق غصون البيارات

في وديان الأردن

وقوله:

ها أنت الآن على الذكرى أنشودة إنسان العصر

يطويها الثوار – إذ طال الركب – إذا الصدر

تستنشدها الأجيال

مع الأطفال الموعودة

في زمنٍ كالصبح يجيئ

كفؤادك بالحب يجيئ

كعيونِكَ للأمل تحن

وللذات الدالة على الرمز المعادل للصديق قصائد كثيرة بالديوان ومنها قصيدته إلى الفنان أحمد عثمان – بالديوان صفحة ٢٩ والمكتوبة في ١٣ مارس ١٩٧١ وفيها يقول:

لم يشْمخْ أبدًا فرعون

إلا لمَّا فَقَأتْ يَدُكَ اليمنى عينَ الصخْر

لتعيد ملامح فرعون

وكتْبتَ رسالتهُ الأولى

في قلب الشبل الرابض تحت عباءة رمسيس

وهو بارعِ في هذا التشكيل الشعري غير المباشر، الذي عالج قضيته المصيرية التي تربطه بالصديق الفنان أحمد عثمان، وفيها يرتكز على الزمن الفرعوني كرابط فيما بينهما للانتماء والانطلاق

وللذات الدالة على المحبوبة مواضع كثيرة في الديوان أجملها ما جاء في قصيدته "من رؤى رجل معاصر" بالديوان صفحة ٦١ والمكتوبة في

١٨ يوليو ١٩٧١- والمحبوبة هنا هي فلسطين/الوطن الأسير، وفيها يقول:

أحلمُ أني أدفع كل مساء عربة يد
وأسير أنادي في الطرقات:
يا زيتونًا لم يسود
إني أعْرِضُكَ بأبخسِ أثمانِ السوق
من يملك رأس المال
أو لا يملك رأس المال
لن يدفع أكثر من لون أسود
فيعيد لزيتوني لونًا ضيع منذ زمان
حتى لو عصرته رحاية إنسان العصر
نزَّ الزيت تباركه الشمس المرتقبةْ، ويضيئ مساء

وفي الديوان قصائد أخرى تقدم لنا عشق الشاعر لبلده وإيمانه بهمومها وحبه لترابها ورموزها، بجانب حرصه على العلاقات الطيبة بالأصدقاء والخلان واستدعائه لقيم الأصالة ودعوته الأصلية إلى تحرير الأرض المحتلة.

كل هذه المعاني والرؤى جسدتها "قصائد حب" وحملت توقيع شاعرها المبدع "صبري أبو علم" منطلقة من ذاته الشامخة. وهو ما أكدته – أيضًا – قصائده التي لم تنشر من قبل.

المؤلف في سطور

- جابر أحمد محمود بسيوني (جابر بسيوني)

- شاعر ووناقد أدبي

- تخرج في كلية الحقوق ، جامعة الإسكندرية ١٩٨٣

- عضو اتحاد كتاب مصر

- شارك كعضو بالمجلس الأعلى للثقافة "لجنة الشعر" .

- عضو مجلس إدارة أتيليه الإسكندرية ٢٠١٦

- أمين عام هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية

- عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب.

- رئيس تحرير أول مجلة متخصصة للأطفال بالإسكندرية "دنيا التذوق"

- معد ومقدم برامج في الإذاعة والتلفزيون بالإسكندرية.

- حصل على العديد من الجوائز الأدبية وشهادات التقدير من جهات مختلفة. وشارك في عدة مؤتمرات دولية ثقافية داخل مصر وخارجها .

صدر له مجموعات شعرية أبرزها :

١ -"أحلام" ، ١٩٩٤ ، هيئة النقد والآداب والعلوم الاجتماعية بالاسكندرية .

٢ - "كل صباح أتجدد" ، ١٩٩٨ ، دار دنيا الوفاء للطباعة والنشر

٣ -"حزني أنا أولى به" ، ٢٠٠١ مطبوعات الكلمة المعاصرة .

٤ – "لحن الماء" ، ٢٠٠٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥ – "لا ينفد حبي أبدًا" ٢٠٠٧ ، الإبداع الشعري المعاصر

٦ –"الطيبون يرحلون" ، ٢٠١٤ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة

٧ –"نورس لا يرى إلا الجميل" ٢٠١٦، هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

صدر له في أدب للأطفال :

- " تبارك الله" ١٩٩٨ ، مجموعة شعرية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

- "إن شاء الله" ، مجموعة شعرية ، ٢٠٠٦ ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

- "عم حسان الندمان" ، مسرحية نثرية ٢٠١٠ ، هيئة الفنون والآداب

- "الكون جميل" ، مجموعة شعرية ، ٢٠١٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

صدر له في الدراسات الأدبية :

- مختارات من شَعْر سميح القاسم ، سلسلة آفاق عربية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٨

- من الأدب السكندري : فتحي الإبياري نموذجًا ، ٢٠١٠ ، فرع اتحاد كتاب الإسكندرية

الفهرس